

باتريك موديانو



عُشبُ الليالي

رواية

ترجمة: توفيق سخان

جائزة نوبل للآداب 2014

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

عُشبُ الليالي



باتريك موديانو

ترجمة: توفيق سخان





منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي
Patrick Modiano, L'herbe des nuits
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Editiond Gallimard, 2012
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين منشورات ضفاف

طبع في لبنان

Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges SCHEHADE, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban et de l'Institut Français".

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-02-1129-2



4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

ومع ذلك فما كان يراودني لم يكن حلما. أحيانا وأنا أذرع الشارع تباغتني هذه الكلمات كما لو أنها كلمات شخص آخر، كلمات جوفاء باردة. على مسرح الذاكرة تطفو وجوه وتفاصيل. طوى الزمن كل من أعرفهم وما عاد هناك من أبادله أطراف الحديث. لا بد أن يكون هناك شاهدان أو ثلاثة على قيد الحياة. لكن يقينا لا أظن أنهم سيذكرون أي شيء. وبالتالي ينتهي بنا المطاف للتساؤل إذا ما كان هنالك حقا أي شهود.

كلا، ما كان يراودني لم يكن حلما. والدليل على ذلك أنني لا زلت أحتفظ بمذكرة سوداء تمتلئ صفحاتها بالملاحظات. لتبديد هذا الغموض، أحتاج إلى كلمات محددة وهكذا أستعين بالقاموس. ملاحظة: إشارة مقتضبة يدونها المرء لتذكر شيء ما. على صفحات الدفتر تتوالى الأسماء، وأرقام الهواتف، وتواريخ المواعيد، وكذلك بعض النصوص القصيرة التي قد تكون لها علاقة ما بالأدب. لكن في أي لون يمكن تصنيفها؟ مذكرات شخصية؟ شذرات من الذاكرة؟ ناهيك عن المئات من الإعلانات الصغيرة التي كنت قد نقلتها إلى صفحات المذكرة والتي كانت قد صدرت في صحف. كلاب ضالة. شقق مؤثثة. طلبات وعروض عمل. عَرافات.

ضمن هذه الأكداس من الخواطر، ثمة ملاحظات تتميز بنبرة أكثر قوة من الأخريات. خصوصا إذا لم يكن هناك ما يخدش جدار الصمت. ما عاد الهاتف يرن منذ مدة. كما أن لا أحد سيطرق الباب.

لا بد أنهم ظنوا أنني قضيت. أنتَ وحيد، تتوخى الحذر، كما لو أنك تريد التقاط رموز جهاز مورس يبعث لك بها مراسل مجهول من مكان قصي. بطبيعة الحال، العديد من هذه الرموز مشوشة، ويجدر بك أن ترهف السمع حتى لا تفقدها إلى الأبد. لكن بعض الأسماء تنفصل بوضوح في الصمت وعلى الصفحة البيضاء...

داني، بول شاستانيي، أغاموري، دوويلز، جيرار مارسيانو، "جورج"، فندق أونيك، شارع مونبارناس... إذا لم تخذلني الذاكرة، فقد كنت دوما أتوخى الحذر في هذا الحي. في اليوم السابق، مررت هنا بمحض الصدفة. انتابني إحساس غريب. ليس السبب في ذلك مرور الزمن ولكن لأن أنا آخر، توأما لي، كان هناك في هذه الضواحي، دون أن تبدو عليه أمارات الشيخوخة، وواصل العيش حتى التفاصيل الصغرى، وحتى نهاية الزمن، ما كنت قد عشته هنا لبرهة من الزمن.

تُرى ما مصدر الشعور بالامتعاض الذي كان ينتابني في الماضي؟ هل السبب في ذلك يعود إلى هذه الشوارع القليلة التي تستظل بمحطة القطارات والمقبرة والتي تبدو فجأة عديمة القيمة؟ تغير لون واجهاتها وصارت تتشح بلون أكثر إشراقا. لا شيء يستحق الذكر. منطقةٌ تقع على مساحة الحياد. هل ممكن حقا أن الآخر الذي تركته هناك كان يعيد حركاتي القديمة، حركة حركة، وأنه يواصل السير في طرقاتي القديمة إلى الأبد؟ كلا، لم يتبق أي شيء منا هنا. لقد طوى الزمن كل شيء. كان الحي جديدا، مُطهرا، كما لو تمت إعادة بنائه في موقع جزيرة صغيرة تنضح بالمرض. وإذا كانت أغلب المباني متشابهة، فإنها تولدُ لديك الإحساس بأنك في حضرة كلب محشو بالقش، كلب كان ذات دهر يملأ المكان غبطة وهو يقفز حياة.

ذلك الأحد زوالا، خلال جولتي، كنت أحاول تذكر ما كان مكتوبا في المذكرة السوداء والتي شعرت بالأسى لأنها لم تكن في جيبي. مواعيد مع داني. رقم هاتف فندق أونيك. أسماء أولائك الذين التقيت بهم هناك. شاستانيي، دوويلز، جيرار مارسيانو، رقم هاتف أغاموري في جناح المغرب بالحي الجامعي. أوصاف مقتضبة لمناطق مختلفة من هذا الحي كنت أنوي أن ألقبها بـ "المناطق الخلفية لمونبارناس،" لكنني سأكتشف بعد مرور ثلاثين سنة بأن شخصا آخر يدعى أوسير فارسافسكي كان قد استعمل هذه العبارة عنوانا لإحدى رواياته.

ذات أصيل خلال يوم أحد من أيام تشرين الأول، انتبهت إلى أنني كنت أنساق إلى هذه المنطقة التي كنت سأتحاشى المرور بها في يوم آخر من أيام الأسبوع. كلا، لا يتعلق الأمر فعلا بحج إلى المكان. غير أن أيام الأحد، خصوصا خلال فترة الأصيل، وإذا كنتَ وحيدا، تشرع أمامك فجوة في مدار الزمن. يكفي التسلل عبرها. كلب محنط كان يملأك غبطة وبهجة حينما كان حيا. ما أن مررت أمام المبنى الأبيض والبني الفاتح الذي تعلوه القذارة للمقاطعة الحادية عشر، شارع أوديسا -كنت أسير على الرصيف المقابل، الرصيف الذي يقع على اليمين - حتى شعرت بانقداح شرارة ما، ذلك الشعور الخفيف بالدوار الذي ينتابك كلما شُرعت أمامك على نحو خاص فجوة في مدار الزمن. بقيت متسمرا في مكاني أحدق في واجهات المبنى التي تحيط بالساحة الصغيرة. هنا كان بول شاستانيي يركن دوما سيارته، بينما كان ينزل في غرفة في شارع مونبارناس، بفندق أونيك. ذات مساء، كنت قد سألته لماذا لا يترك هذه السيارة أمام الفندق. تألق محياه بابتسامة وشت بالحرج وأجابني وهو يهز منكبيه: "من باب الاحتراس..."

سيارة لانسيا ذات لون أحمر. قد تثير الانتباه. ولكن، إذا كان يريد فعلا أن يبقى متواريا عن الأنظار، فإن اختيار هذا النوع من السيارات وهذا اللون يبدو فكرة غريبة... بعد ذلك شرح لي بأن له صديقا يقيم في هذا المبنى الذي يقع على شارع أوديسا وأنه غالبا ما يعيره سيارته. نعم، لهذا السبب كانت السيارة مركونة هناك.

"من باب الاحتراس،" قال شاستانيي. تنبهت سريعا إلى أن هذا الرجل الذي يبلغ الأربعينيات، ذي السحنة السمراء، والذي يرفل دوما في بدلات رمادية وفي معاطف زرقاء غامقة، لم يكن يزاول أي عمل محدد. كان صوته يتناهى إلي وهو يتصل هاتفيا بفندق أونيك، لكن الجدار كان سميكا جدا بحيث كان يصعب علي تتبع مجريات الحديث. وحده الصوت يصلني صارما، وأحيانا قاطعا. فترات صمت طويلة. هذا الشخص المدعو شاستانيي كنت قد تعرفت إليه بفندق أونيك خلال الفترة التي تعرفت خلالها إلى بعض الأشخاص الذين التقيت بهم في المكان ذاته: جيرار مارسيانو، دوفيلتز الذي نسيت اسمه الشخصي... تداخلت ملامح وجوههم مع مرور الزمن وأصبحت أصواتهم مشوشة. تبدو صورة شاستانيي أكثر وضوحا بسبب الألوان: شعر فاحم السواد، معطف أزرق غامق، سيارة حمراء. أظن أنه قضى بعض السنوات في السجن شأنه شأن دوفيلتز ومارسيانو. كان الأكبر سنا ولا شك أنه قضى نحبه منذ ذلك الحين. كان يستيقظ في ساعة متأخرة من النهار وكان يحدد مواعيده في أماكن بعيدة، صوب الجنوب، في تلك الأماكن المعزولة من البلد حوالي محطة القطارات العتيقة الخاصة بالبضائع التجارية. هذه الأماكن كانت مألوفة بالنسبة لي أيضا: فالغيير، ألراي، ناهيك عن شارع لي فافوريت الذي يبعد قليلا عن هذه الأماكن...

مقاهٍ مُقفرة حيث كان يصطحبني أحيانا وحيث كان يظن دون شك بأن لا أحد يمكن أن يتعرف عليه. لم أجرؤ أبدا أن أسأله إذا ما كان محظورا عليه أن يتواجد في هذه الأماكن، مع أن هذه الفكرة كانت غالبا ما تراودني. لكن لماذا كان يركن السيارة الحمراء أمام هذه المقاهي؟ ألم يكن يجدر به أن يسير على الأقدام، من باب الاحتراس الكامل؟ أما أنا فقد كنت دائما، خلال هذه الفترة، أسير على امتداد هذا الحي الذي شرعوا بتهديمه، على امتداد أراض سبخة تترامى على مداها بنايات صغيرة ذات نوافذ مغلقة بالطوب. كان ركام من الحصى يتخلل هذه الأجزاء من الشوارع، كما لو أنها تهدَت في أعقاب قصف جوي. وهذه السيارة الحمراء المركونة هناك، التي يشيع جوفها رائحة جلدية، هذه البقعة المشعة التي بفضلها تعود الذكريات إلى السطح... الذكريات؟ كلا. مساء ذلك الأحد، اقتنعتُ أخيرا بأن الزمن توقف في مكانه وبأنني إذا ما تسللت فعلا عبر الفجوة فإنني سأجد كل شيء كاملا كما هو. أولا هذه السيارة الحمراء. قررت بأن أسير حتى شارع فاندام. يوجد هناك مقهى حيث كان بول شاستانيي قد اصطحبني مرة وحيث أخذ الحديث مجرى شخصيا خلافا للسابق. شعرت حينها بأنه كان على شفير أن يبوح لي بشيء ما. اقترح علي، عن طريق الإشارة، بأن "أعمل" لديه. بقيت أراوغه. لم يلح أكثر. كنتُ في ريعان الشباب لكنني كنت أحتاط كثيرا من الأشخاص. بعد ذلك، عدت إلى هذا المقهى رفقة داني.

ذلك الأحد، حينما وصلت إلى جادة مين كان المساء في أوله، وكنت أحاذي البنايات الضخمة الحديثة ذات الأرقام الثنائية. كانت تشكل واجهة مستقيمة وكانت الأضواء مطفأة في النوافذ. كلا، ما كان

يراودني لم يكن حلما. كان شارع فاندام يفضي إلى جادة تحاذيه، لكن ذلك المساء كانت الواجهات صقيلة، متراصة، دون أدنى بصيص نور. كان علي أن أزيل اللبس وأن أوضح الأمور: لم يعد شارع فاندام قائما في مكانه.

عبرت الباب الزجاجي لأحد هذه المباني، في المكان تقريبا المتصل بشارع فاندام. ضوء النيون. ممر طويل عريض تحده حواجز زجاجية حيث تتوالى خلفها مكاتب. ربما لا يزال جزء من شارع فاندام يحيط به تكتل من المباني الجديدة. أثارتني الفكرة فانطلقت في ضحك هستيري. واصلت تتبع الممر ذي الأبواب الزجاجية. لم تبد لي نهاية الممر في الأفق ولم أستطع أن أحدق بسبب ضوء النيون. ظننت أن هذا الممر يستعير التخطيط القديم لشارع فاندام. أغمضت جفني. كان المقهى يقع عند نهاية شارع تزيده نهاية زقاق يتصل بجدار أوراش السكك الحديدية تطاولا وتراميا. كان بول شاستانيي يركن سيارته الحمراء في هذا الزقاق المسدود، أمام الجدار الأسود. فندق فوق المقهى، كان فندق بيرسيفال الذي يحمل اسم شارع له الاسم ذاته قد اندثر وتلاشى هو الآخر تحت سطوة المباني الجديدة. كنت قد دونت كل شيء في المذكرة السوداء.

حوالي النهاية، أخذت داني تشعر كثيرا بالقلق في فندق أونيك - كما قال شاستانيي - وهكذا استأجرت غرفة في فندق بيرسيفال. منذ ذلك الحين أرادت أن تتجنب الآخرين دون أن أعلم أي واحد منهم على وجه التحديد: هل هو شاستانيي؟ أم دوفيلتز؟ أم جيرار مارسيانو؟ بقدر ما أفكر الآن في الموضوع، بقدر ما يبدو لي أنها كانت تظهر علامات قلق مبكرة منذ اليوم الذي انتبهتُ فيه إلى وجود

شخص في البهو ووراء منضدة الاستقبالات، شخص كان شاستانيي قد أخبرني بأنه مدير فندق أونيك والذي يظهر اسمه على صفحات مذكرتي: لَخْضر، يليه اسم آخر: دافان، الاسم الأخير يوجد بين هلالين.

التقيت بها في الحي الجامعي حيث كنت غالبا ما ألجأ. كانت تقيم في غرفة في جناح الولايات المتحدة، وكان وجودها يثير استغرابي ذلك أنها لم تكن طالبة كما أنها لم تكن من جنسية أمريكية. لكن وجودها هناك لم يتعد سوى فترة قصيرة منذ أن تعرفت عليها. بالكاد عشرة أيام. أتردد في كتابة اسمها العائلي كاملا كما دونته في المذكرة السوداء، خلال لقائنا الأول: داني ر.، جناح الولايات المتحدة، 15، شارع جوردان. لعلها تحمله اليوم من جديد - ضمن الكثير من الأسماء الأخرى التي انتحلتها بعد ذلك - ولا أرغب في إثارة الانتباه إليها في حالة إذا ما كانت لا تزال على قيد الحياة في مكان ما. ومع ذلك، فإنها إذا ما قرأت هذا الاسم مطبوعا، ربما قد تتذكر بأنها كانت تحمله في مرحلة ما وقد تصلني أخبارها. ولكن لا، فأنا لا تراودني الكثير من الأوهام بهذا الصدد.

خلال اليوم الذي التقينا فيه، كنت قد كتبت "دَني" في المذكرة. غير أنها قامت بتعديل اسمها الشخصي بواسطة قلمي: داني. لاحقا، اكتشفت بأن هذا الاسم الشخصي "داني" كان عنوان قصيدة لكاتب كنت أقدر أعماله حينها وكنت أشاهد أحيانا جادة سانت جيرمان وهي تفضي إلى فندق تاران. أحيانا تحدث مصادفات غريبة.

زوال الأحد الذي تركت فيه جناح الولايات المتحدة، طلبتْ مني الحضور لاصطحابها من الحي الجامعي. كانت تنتظرني أمام مدخل الجناح وقد وضعت إلى جانبها حقيبتي سفر. أخبرتني بأنها حصلت على غرفة في فندق بمونبارناس. اقترحتُ عليها أن نسير حتى المكان الجديد. لم تكن الحقيبتان ثقيلتان.

سلكنا شارع مين. كان خاليا، كما في المساء السابق، في الساعة ذاتها. كان صديق مغربي يقيم في الحي الجامعي قد أرشدها إلى الفندق، صديق كانت قد قدمته لي في المقهى خلال لقائنا الأول، شخص ما يدعى أغموري.

جلسنا على مقعد يحاذي الشارع الذي يضم المقبرة. فتشتْ في هذين الكيسين المعدين للسفر خشية أن تكون قد نسيت شيئا ما. بعد ذلك واصلنا المسير. شرحت لي بأن أغموري يتوفر على غرفة في هذا الفندق ذلك أن أحد المالكين كان شخصا مغربيا. ولكن لماذا كان يقطن هو أيضا في الحي الجامعي؟ لأنه كان طالبا. كما أنه يتوفر أيضا على سكن آخر في باريس. وهل هي الأخرى كانت طالبة؟ سيساعدها أغموري في التسجيل في كلية سونسيي. لم يبد عليها أنها كانت مقتنعة بذلك كثيرا وهكذا نطقت بالجملة الأخيرة عن مضض. ومع ذلك، ذات مساء، أذكر أنني رافقتها حتى كلية سونسيي على متن قطار الأنفاق، خط مباشر يصل دوروك بمونج. كانت السماء تهمي رذاذا، لكن ذلك لم يزعجنا. كان أغموري قد أخبرها بأنه يجب عليها السير على طول زُقاق مونج، وتمكننا في الأخير من بلوغ هدفنا: ساحة ما، أو بالأحرى أرض سبخة تحيط بها منازل نصف مهدمة. كانت البناية تقع في مكان مترب وكان علينا تحاشي برك الماء التي توجد في

الأطراف. في الوسط تحديدا، يوجد مبنى حديث تم الانتهاء من تشييده ذلك أن الدعامات كانت لا تزال في مكانها... كان أغموري ينتظرنا في المدخل، وقد ترقرقت هيئته تحت وهج ضوء الممر. بدا لي أن نظرته بدت قلقة أكثر مما كانت عليه عادة، كما لو أنه كان يشعر بالأمان وهو ينتصب هناك أمام كلية سونسيي بالرغم من الأرض السبخة والمطر. أستعيد كل هذه التفاصيل دونما نسق يذكر، دونما انتظام، وغالبا ما كان الضوء يشوش الرؤية. وقد كان هذا يتعارض مع الملاحظات الدقيقة التي تظهر على صفحات المذكرة. تكتسي هذه الملاحظات أهمية خاصة بالنسبة لي لأنها تمنح بعضا من الانسجام للصور التي تتواثب بحيث أن شريط الفيلم يكاد يتقصف. على نحو غريب، كانت ملاحظات أخرى تهم أبحاثا قمت بها في نفس الأثناء بخصوص أحداث لم أعشها شخصيا - أحداث تعود إلى القرنين الثامن والتاسع عشر - تبدو لي أكثر وضوحا. كما أن الأسماء التي تتداخل مع هذه الأحداث البعيدة: البارونة بْلونش، تريستان كوربيير، جين دوفال[1]، ضمن آخرين، وأيضا ماري آن لورووي، التي أعدمت بالمقصلة في 26 تموز من سنة 1794 في سن الواحد والعشرين، لها صوت أقرب وأكثر ألفة إلى أذني قياسا بأسماء الأشخاص الذين عاصرتهم.

1 **تريستان كوربيير**: (1845-1875) شاعر فرنسي يعد واحدا من رموز ما عرف بالشعراء الملعونين وقد صدرت له سنة 1873 أضمومته الشعرية الوحيدة تحت عنوان "قصص الحب الصفراء" دون أن تسترعي الانتباه ويعود الفضل في ذيوع صيته بعد وفاته إلى الشاعر فيرلان الذي أفرد له فصلا خاصا في مؤلفه عن الشعراء الملعونين سنة 1883. **جين دوفال**: ملهمة الشاعر الفرنسي شارل بودلير وعشيقته. (م)

ذلك الأحد زوالا خلال وصولنا إلى فندق أونيك، كان أغموري في انتظار داني، وهو يجلس في البهو رفقة دوفيلتز وجيرار مارسيانو. في هذا المساء تحديدا تعرفت إلى هذين الأخيرين. أعربا عن رغبتهما في أن نقوم بزيارة الحديقة التي تقع خلف الفندق حيث وضعت منضدتان إلى جانب مظلات. أخبرها أغاموري: "تطل نافذة غرفتك على هذا الجانب." لكن هذا التحديد لم يبد أنه أثار اهتمام داني. دوفيلتز. مارسيانو. أحاول أن أركز أكثر حتى أمنحهم وصفا يقارب الواقع، أبحث عما سيجعلهم ينبثقون إلى الوجود من جديد، هناك أمام ناظري، عن السبب الذي يجعلني أشعر بحضورهم بعد مرور كل هذا الوقت. أنا لا أدري، ربما رائحة عطر ما... كان دوفيلتز يبدي على الدوام مظهرا متأنقا: شوارب شقراء، ربطة عنق، بدلة رمادية، وكان يرشح منه عبق عطر تمكنت من العثور على اسمه، بعد مرور سنوات على ذلك، بفضل قارورة منسية في غرفة فندق: بينو سيلفيستر. خلال دقائق، أثار لدي عبق بينو سيلفيستر صورة شخص يهبط زقاق مونبارناس وهو يولي لي ظهره، شخص أشقر بخطوات بطيئة: دوفيلتز. ثم، لا شيء، كما خلال تلك الأحلام التي لا يتبقى منها سوى انعكاس باهت عند الاستيقاظ يتلاشى مع توالي ساعات اليوم. كان جيرار مارسيانو أسمر، ببِشرة بيضاء، وقامة قصيرة إلى حد ما، ويحدق دائما بعينيه، لكنه لا يراك. توطدت علاقتي بأغاموري ذلك أنني التقيت به خلال مناسبات عديدة، مساء، في مقهى بساحة مونج بعد انتهاء محاضراته بكلية سونسيي. كان ينتابني إحساس، كل مرة، بأنه يود أن يبوح لي بشيء هام، وإلا لما طلب مني أن ألتحق به هنا، وجها لوجه، بعيدا عن الآخرين. كان هذا المقهى هادئا حينما يحل الليل في

الشتاء، وكنا وحيدين في أمان داخل القاعة. كان كلب صغير يسند ذقنه إلى المقعد ويرقبنا وهو يرف جفنيه. وأنا أستعيد بعض المحطات في حياتي، كنت أسترجع أبياتا شعرية وغالبا ما كنت أبحث عن أسماء أصحابها. يرتبط مقهى ساحة مونج لدي بالبيت الشعري التالي: "المخالب المستدقة لكلب صغير تنهش بلاط الليل."

كنا نسير حتى مونبارناس. خلال هذه المسافات، أفضى لي أغموري بمعلومات نادرة عن حياته. فقد تم طرده من غرفته بالحي الجامعي في جناح المغرب، لكنني لم أعرف أبدا إذا ما كان ذلك لأسباب سياسية أم لشيء آخر. كان يقيم في شقة صغيرة أعارها له أحدهم في المقاطعة السادسة عشر، بالقرب من دار الإذاعة. لكنه كان يفضل غرفته بفندق أونيك التي حصل عليها بفضل المدير، "صديق مغربي." لماذا إذن الاحتفاظ بالشقة الواقعة في المحافظة السادسة عشر؟ "تقيم زوجتي هناك. نعم، أنا متزوج." وشعرت حينها بأنه بعد ما قاله سيتكوم في صَدفة صمته ولن يضيف المزيد. بيد أنه لا يجيب على الأسئلة. فما باح لي به من أسرار - لكن هل يمكننا فعلا أن نتحدث عن أسرار؟ -كان ذلك على طول طريق ساحة مونج بمونبارناس، بين فترات طويلة من الصمت، كما لو أن السير كان يشجعه ليتحدث إلي.

شيء ما أثار انتباهي. هل كان فعلا طالبا؟ حينما سألته عن عمره، أجابني: ثلاثون سنة. بعد ذلك بدا لي أنه شعر بالندم لأنه أخبرني بذلك. هل يمكن أن يكون المرء طالبا وهو في الثلاثين من عمره؟ لم أجرؤ أن أطرح عليه السؤال خشية أن أجرح مشاعره. وماذا عن داني؟ لماذا تريد هيَ الأخرى أن تكون طالبة؟ هل من السهل، كما يريدون أن يوحوا بذلك، التسجيل بين عشية وضحاها في هذه الكلية

المسماة سونسيي؟ حينما كنت أراقبهما، هي وهو، بفندق أونيك، لا يبدو من مظهرهما أنهما فعلا طالبين، كما أنه هناك صوب مونج، تبدو لي بناية الكلية، بجزئها المبني وسط أرض بور، كما لو أنها تنتمي بغتة إلى مدينة أخرى، إلى بلد آخر، إلى حياة أخرى. هل السبب في ذلك يعود إلى بول كاستانيي، ودوفيلتز ومارسيانو وأولائك الذين كنت أراهم في مكتب الاستقبالات بفندق أونيك؟ غير أنني لم أشعر أبدا براحة البال في حي مونبارناس. كلا، حقيقة، كانت هذه الأزقة مغلفة بوجوم كئيب. في الذكرى التي أحتفظ بها عنها، غالبا ما تتساقط الأمطار، بينما تتراءى لي أحياء باريس الأخرى دوما خلال فصل الصيف حينما يراودني حلم بشأنها. أظن أن مونبارناس فقدت ألقها منذ الحرب. على مسافة قريبة من الجانب السفلي من الشارع، لا تزال لا كوبولْ ولو سيليكتْ تومض قليلا، غير أن الحي كان قد فقد روحه. فقد مزاياه وتوقف قلبه النابض.

ذات أحد زوالا، كنت بمفردي مع داني، في الجانب السفلي من زقاق أوديسا. شرع المطر في الهطول وهكذا لجأنا إلى باحة سينما مونبارناس. جلسنا وسط القاعة. كان هناك فاصل وكنا نجهل عنوان الفيلم. خلقت لدي قاعة السينما الرحيبة والمهدمة الإحساس ذاته بعدم الراحة الذي كان ينتابني في أزقة الحي. كانت تنبعث من المكان رائحة الأوزون، كما يحدث حينما تمر بمحاذاة سياج محطة قطار الأنفاق. في مقاعد الجمهور، يوجد بعض الجنود الذين يوجدون في إجازة. سيستقلون، عند حلول الليل، قطارات بروتان نحو بريست أو لوريون. وهناك أيضا الزوايا السرية حيث يتوارى أصحاب اللقاءات العابرة الذين لن يشاهدوا الفيلم. أثناء العرض السينمائي، ستتناهى إلى السمع

شكاويهم، تباريحهم، وخلف كل ذلك صرير المقاعد الذي يزداد قوة...
سألتُ داني إذا ما كانت تعتزم مواصلة الإقامة في الحي. لا. ليس لمدة طويلة. كانت تحبذ العيش في غرفة كبيرة في المقاطعة السادسة عشرة. هناك، يعم الهدوء والسكينة ويمكن للمرء أن يحيا دون أن ينتبه أي أحد لوجوده. ولن يتمكن أي شخص من العثور عليك أبدا. "لماذا؟ هل عليك أن تختبئي؟ - لا. على الإطلاق. ماذا عنك، هل تحب هذا الحي؟"

على ما يبدو كانت ترغب في تفادي الإجابة على سؤال محرج. وأنا الآخر، بماذا يمكنني الرد عليها؟ أن أحب أو لا أحب هذا الحي فالأمر سيان بالنسبة لي. يبدو لي اليوم أنني كنت أحيا حياة أخرى بين جنحي حياتي اليومية. أو، بشكل أكثر تحديدا، أن هذه الحياة الأخرى مرتبطة بهذه الحياة الأكثر قتامة قياسا بكل الأيام الأخرى وأنها تمنحها رونقا ولغزا هي في واقع الأمر تفتقده. هكذا فإن الأماكن الأليفة لديكم والتي تقومون بالتردد عليها في الحلم بعد مرور سنوات لاحقا تتخذ طابعا غريبا، كهذا الزقاق الكئيب للأوديسة وقاعة سينما مونبارناس التي تنبعث منها رائحة محطة قطار الأنفاق.

رافقتها هذا الأحد حتى فندق أونيك. كان لديها موعد مع أغاموري. سألتها: "أتعرفين زوجته؟". بدت عليها الدهشة لأنني كنت على علم بوجودها. أخبرتني: "لا. نادرا ما يلتقي بها. إنهما إلى حد ما منفصلان." لا يجمل بي أن أعيد هذه الجملة مرة أخرى بكل دقة ما دامت تبرز أسفل صفحة من صفحات مذكرتي بعد اسم "أغاموري." على نفس الصفحة، ملاحظات أخرى لا علاقة لها بهذا الحي الكئيب من مونبارناس، أو بداني، أو ببول شاستانيي، أو بأغاموري، لكن لها

علاقة بالشاعر تريستان كوربيير وأيضا بجين دوفال، عشيقة بودلير. عثرت على عناوينهم، ما دام أنه كان مدونا: كوربيير، 10، زقاق فروشو، جين دوفال، 17، زقاق سوفروي حوالي 1878. وبعد صفحات كثيرة، ثمة صفحات كاملة مخصصة لهم، مما يبرز الأهمية القصوى التي يحتلونها بالنسبة لي قياسا بأغلب الأشخاص الأحياء الذين عاشرتهم خلال هذه الفترة.

ذلك المساء، تركتها بمدخل الفندق. لمحت أغاموري الذي كان ينتظرها واقفا وسط الباحة. كان يرتدي معطفا لونه بني فاتح. هذا المعطى الآخر كنت قد دونته في المذكرة، "أغاموري: معطف بني فاتح." دون شك، حتى يكون لدي نقطة ارتكاز لاحقا- المزيد من التفاصيل الصغيرة الممكنة بخصوص هذه المحطة من حياتي المقتضبة والمضطربة. "هل تعرفين زوجته؟ - لا، نادرا ما يلتقي بها. فهما إلى حد ما منفصلين." جملٌ تتناهى إليك على حين غرة حينما تلتقي بشخصين في غمار حديث في الشارع. ولن تدرك أبدا موضوع الحديث. قطار يقطع في لمح البصر محطة بحيث لن تتمكن من قراءة اسم المدينة على العارضة. هكذا، بينما يكون جبينك ملتصقا بزجاج النافذة، تدون بعض التفاصيل: مُرور واد، برج جرس قرية، بقرة سوداء تحلم تحت شجرة، بمعزل عن القطيع. ستعزي النفس بأنك في المحطة المقبلة ستقرأ اسما وستتمكن في الأخير من معرفة مكانك بالضبط. لم ألتق أبدا ولا واحدا من الأشخاص الذين تظهر أسماءهم على صفحات هذه المذكرة السوداء. سيكون حضورهم عابرا، كما أنني أكاد أنسى أسماءهم. لقاءات بسيطة دون أن يعلم المرء إذا ما كانت المصادفة هي التي توجد وراءها. ثمة مرحلة في حياة المرء، مفترقُ طرق ما، حيث يمكنك أن تتردد

بين الكثير من الطرق. زمن اللقاءات، كما يكون مدونا على غلاف كتاب وجدته على أرصفة المحطة. تحديدا، خلال هذا الأحد زوالا حيث تركت داني رفقة أغاموري، كنت أسير، أتساءل لماذا، على طول رصيف سانت ميشيل. صعدت الشارع الذي تلفه الكآبة كشارع مونبارناس، ربما لأنه يخلو من المارة خلافا لباقي أيام الأسبوع وأن أضواء الواجهات تكون مطفأة. هناك في الأعلى، بعد منفذ زقاق موسيو لو برانس، بعد السلالم والدرابزين الحديدي، ثمة واجهة زجاجية كبيرة، الجزء الخلفي لمقهى يطل سطحه على سياج حديقة اللوكسمبورغ. كانت قاعة المقهى كلها غارقة في الظلام، باستثناء هذه الواجهة الزجاجية التي يرابط فيها الزبناء عادة حتى ساعة متأخرة من الليل أمام مشرب على شكل قوس. في هذه الليلة، ضمن هؤلاء الزبائن، ثمة شخصان عرفتهم وأنا أمر: أغاموري، بسبب معطفه البني الفاتح وهو ينتصب واقفا، وإلى جانبه، توجد داني وقد جلست على أحد المقاعد العالية.

دنوت قليلا. كان من الممكن أن أدفع الباب الزجاجي وأن أنضم إليهم. لكن الخشية من أن أبدو متطفلا جعلتني أعرض عن ذلك. في تلك الفترة، ألم أكن دوما في الخلف، في وضع المشاهد، أو بالأحرى في وضع شخص يلقب بـ "المشاهد الليلي،" ذلك الكاتب من القرن الثامن عشر الذي كنت أحبه كثيرا والذي يظهر اسمه في مناسبا عديدة مقرونا بملاحظات، على صفحات مذكرتي السوداء؟ ذات يوم أخبرني بول شاستانيي، حينما كنا معا على جانب فالغيير أو الفافوريت: "إنه لأمر غريب... تصغي إلى الأشخاص بكثير من الانتباه... لكنك تبدو دوما شاردا..." وراء الواجهة الزجاجية، تحت ضوء النيون المشع كثيرا لم يعد شعر داني كستنائيا فاتحا، ولكنه بدا أشقر، وسحنتها أكثر شحوبا

من العادة، لَبنية، تتخللها بقع النمش. كانت الشخص الوحيد الجالس على مقعد طويل. كانت هناك مجموعة من ثلاثة أو أربعة أشخاص يجلسون خلفها هي وأغاموري، يمسكون بكؤوسهم في أيديهم. مال أغاموري نحوها وكان يهمس في أذنها. قبلها في القفا. ضحكت ورشفت رشفة من مشروب كحولي عرفته من لونه وكانت تطلبه كل مرة كنا نتردد فيها على مقهى: شراب الكوانترو.

كنت حائرا إذا ما كان علي أن أخبرها في الغد: لقد رأيتك البارحة رفقة أغاموري في مقهى لوكسمبورغ. كنت لا أزال أجهل نوع العلاقة التي تربطهم. على أي، فهما لم يكونا يقيمان معا في الغرفة ذاتها في فندق أونيك. كنت أحاول أن أفهم نوع العلاقة التي تربط أفراد هذه المجموعة الصغيرة. على ما يبدو، فجيرار مارسيانو هو صديق أغاموري منذ زمان بعيد وهذا الأخير عرفه على داني حينما كان الاثنان يقيمان في الحي الجامعي. كان بول شاستانيي ومارسيانو رفيقين، بالرغم من الفرق بينهما في السن، وكذلك الشأن بالنسبة لدوفيلتز. لكن ولا شاستانيي أو دوفيلتز كانا قد التقيا داني قبل أن تقيم بفندق أونيك. أخيرا، كانت هناك علاقات وثيقة تجمع بين أغاموري ومدير الفندق، المدعو لَخْضر الذي كان يتردد على المكتب مرة كل يومين، والذي كان ينتصب وراء منضدة الاستقبالات. كان يرافقه غالبا شخص يدعى "دافان." كان هذان الأخيران يبدوان على صلة ببول شاستانيي ومارسيانو ودوفيلتز منذ مدة. كل هذا كنت قد دونته في المذكرة السوداء، ذات زوال حينما كنت أنتظر داني، شأني شأن من يقوم بملأ الكلمات المتقاطعة أو وضع رسوم لتزجية الوقت.

****

لاحقا، خضعت لاستجواب بشأنهم. توصلت باستدعاء من طرف شخص يدعى لانغلي. انتظرت طويلا في مكتب في مبنى لدائرة شرطة جيسفر، على العاشرة صباحا. عبر النافذة، يتراءى سوق الورود والواجهة السوداء لفندق دْيو. صبيحة خريفية تلقي بأشعتها الشمسية على دائرة الشرطة. دخل لانغلي إلى المكتب، رجل كستنائي، متوسط القامة، بدا لي صارما بالرغم من عينيه الزرقاوين الكبيرتين. لم يقل لي حتى صباح الخير وبادرني بالسؤال مباشرة وقد اتخذ صوته نبرة صارمة. بعد حين غدا صوته لطيفا بسبب ما أظن أنه هدوئي وإدراكه بأن لا علاقة لي بكل هذه الأمور. خطر ببالي بأنني هناك، في مكتبه، أتواجد ربما في المكان الذي شنق فيه جيرار دو نيرفال نفسه. إذا ما نزل المرء الأدراج إلى أقبية هذا المبنى فسيكتشف، في وسط واحد منها، جزءا من زقاق لا فيي لا نتيرن. لم يكن في وسعي الإجابة على أسئلة لانغلي بالدقة المطلوبة. تلا علي أسماء بول شاستانيي، جيرار مارسيانو، دوفيلتز، أغاموري وكان يرغب في معرفة علاقتي بهم. في هذه اللحظة، أدركت بأنه، دون أدنى شك، لم يكن هؤلاء الأشخاص ليلعبوا أي دور مهم في حياتي. إنهم مجرد ممثلين ثانويين. خطر ببالي نيرفال وزقاق لا فيي لا نتيرن حيث تم بناء المبنى حيث كنا نتواجد. هل يُدرك ذلك؟ كنت على وشك أن أسأله. خلال مراحل هذا الاستجواب، أشار خلال مناسبات عديدة إلى امرأة تدعى ميراي سامبيري التي لا شك أنها "كانت تتردد" على فندق أونيك، لكنني لم أكن أعرفها. "هل أنت متأكد بأنك لم تلتق بها أبدا؟" لا يثير هذا الاسم لدي أي شيء. لا شك أنه انتبه بأنني كنت صادقا وبالتالي لم يلح أكثر في السؤال. دونت "ميراي سامبييري" في مذكرتي ذلك المساء، وأسفل الصفحة

ذاتها، كتبت: "14، مقر جيسفر. لانغلي. نيرفال. زقاق لا فيي لا نتيرن." شعرت بالدهشة لأنه لم يأت على ذكر اسم داني. لعلها لم تخلف وراءها أية علامة في سجلاتهم. حسب التعبير الدارج، فقد تسللت عبر فجوات الشبكة وتبخرت في الهواء. ذلك أفضل لها. خلال الليلة التي ضبطتها رفقة أغاموري في مشرب مقهى لوكسمبورغ، انتهيت إلى عدم تمييز وجهها تحت الضوء القوي جدا والأكثر بياضا لأضواء النيون. كانت مجرد بقعة ضوئية، دون ما يبرزها، كصورة تعرضت للعرض مرات ومرات. بياض. ربما تكون قد أفلتت من تحريات هذا الشخص المدعو لانغلي بواسطة الظاهرة ذاتها. لكنني كنت على خطأ. خلال مراحل الاستجواب الثاني الذي خضعت له في الأسبوع التالي، اكتشفت بأنه يعلم الكثير عنها.

خلال ليلة بينما كانت لا تزال تقيم في الحي الجامعي، رافقتها حتى محطة قطارات الأنفاق بلوكسمبورغ. لم تشأ أن تدخل بمفردها، هناك في جناح الولايات المتحدة، وطلبت مني أن أستقل القطار رفقتها. حينما كنا نهبط السلالم لبلوغ المنصة، كان القطار الأخير قد غادر. كان بإمكاننا أن نسير على الأقدام، غير أن فكرة السير في زقاق لا سانتي الذي لا ينتهي أبدا وبمحاذاة جدران السجن وبعد ذلك على طول مستشفى سانت بيير، في هذه الساعة، أصابتني بالهلع. دفعت بي إلى منفذ زقاق موسيو لو برانس وهكذا وجدنا أنفسنا في مشرب الدائرة، في نفس الأماكن التي كانوا فيها في الليلة السابقة، هي وأغاموري. جلستْ إلى الكرسي العالي بينما بقيت أنا واقفا. ضغط الواحد منا على الآخر في ظل الزحمة التي سادت بسبب العدد الكبير للزبائن الذين كانوا يحفون بالمشرب. أعشانا نور الأضواء القوية وكانت

الجلبة حولنا تغطي على أصواتنا. بعد ذلك انصرف الرواد الواحد بعد الآخر. في جوف المقهى تماما، لم يبق سوى زبون، يتكئ على المشرب، ولم نكن نعلم إذا ما كان ثملا أو أنه ببساطة غفا. كانت الأضواء دائما بيضاء، دائما قوية، لكنني شعرت بأن مجالها قد تراجع وبأن كشافا ضوئيا وحيدا فقط كان موجها نحونا. حينما غادرنا المكان إلى الخارج، كان كل شيء على العكس غارقا في ظلام العتمة، وقد شعرت بالراحة كما فراشة أفلتت من جاذبية المصباح المحرقة.

كانت الساعة تشير إلى حوالي الثانية أو الثالثة صباحا. أخبرتني بأنها غالبا ما كانت تصل وقد غادر القطار الأخير محطة الأنفاق بلوكسمبورغ وأنه بسبب ذلك عثرت على هذا المقهى الذي كانت تسميه بمقهى "66،" المقهى الوحيد الذي تبقى أبوابه مفتوحة طوال ساعات الليل. بعد مرور بعض الوقت لاستجوابي من طرف لانغلي، كنت أسير، في ساعة متأخرة جدا من الليل، نحو المنطقة العليا من شارع سان ميشيل ولمحت من بعيد عربة رجال الأمن مركونة على قارعة الطريق تحجبُ الواجهة الزجاجية المضاءة لمقهى "66". يتم دفع الزبائن إلى الأعلى. نعم، هذا ما شعرت به أمام هذا المشرب رفقة داني. فراشات مسلوبة تنشد الأنوار، قبل الغارة. أظن أنني نطقت بكلمة "الغارة" في أذنها وبأنها ابتسمت.

كان هناك إذن، في هذه الفترة، في باريس، نقط كثيرة مضيئة تستعمل كشراكٍ للإيقاع بالأشخاص وكنت أسعى ما وسعني السعي لتجنبها. حينما ينتهي بي المطاف وسط زبائن غرباء، كنت دائما أتوخى الحذر وكنت أحاول تحديد منافذ الإغاثة. أخبرتني: "تظن أنك في بيغال." وقد تفاجأت لسماع اسم "بيغال" ينثال بين شفتيها بألفة

ما. في الخارج، سرنا بمحاذاة سياج حديقة لوكسمبورغ. أعدت كلمة "بيغال" وانفجرتُ ضحكا. هي الأخرى ضحكت. كان الصمت يرين حولنا. عبر السياج تتناهى إلينا هسهسة الأشجار. كانت محطة لوكسمبورغ مغلقة، وكان يجب انتظار حتى الساعة السادسة صباحا لاستقلال القطار الأول. هناك، انطفأت أضواء مقهى "66." بوسعنا العودة مشيا، وكنت على استعداد لمجابهة زقاق لا سانتي الطويل والكئيب رفقتها.

على الطريق، كنت أبحث عن ممر مختصر وقد تاهت بنا السبل في الأزقة الصغيرة حول فال دو غراس. لا يزال الصمت يطبق على المكان وكان صوت أقدامنا يصلنا هادرا. تساءلت إذا لم نكن نوجد بعيدا عن باريس، في مدينة من مدن الضواحي مثل آنجي، فاندوم أو سومور، أسماء مدن كنت أجهلها وكانت تشبه أزقتها الهادئة زقاق فال دو غراس الذي يوجد في نهايته سياج يحيط بحديقة.

أمسكتْ بذراعي. من بعيد، كان يتراءى ضوء أقل قوة بكثير من ضوء مقهى "66" في الطابق الأرضي لبناية.

فندق. كان الباب الزجاجي مفتوحا وكان الضوء ينبعث من الممر الذي يقعي وسطه كلب كان قد وضع ذقنه على الأرض. بالداخل، وراء مكتب الاستقبال، ثمة شخص، رجل أصلع، يتصفح مجلة. هناك، على الرصيف، لم تعد لدي الشجاعة لمحاذاة جدار السجن والمستشفى ومواصلة السير على طول زقاق لا سانتي الذي لا يبدو له في هذا الليل الجاثم أية نهاية.

لا أعلم أي واحد منا، من بيننا نحن الاثنين، اقتاد الآخر على طول هذا الطريق. في الممر، تخطينا الكلب دون أن نوقظه. كانت الغرفة

رقم 5 فارغة. أذكر الرقم 5، أنا الذي كنت دوما أغض الطرف عن أرقام غرف الفنادق، عن لون جدرانها وأثاثها وستائرها، كما لو كان من الأفضل لحياتي خلال هذه الفترة أن تمحي بالموازاة مع ذلك. ومع ذلك، فقد بقيت جدران الغرفة رقم 5 عالقة في ذهني، وكذلك الستائر: ورق ملون موشى برسومات بلون أزرق باهت، وذلك النوع من الستائر السوداء التي علمت فيما بعد بأنها تعود إلى فترة الحرب وبأنها تحول دون تسرب أي ضوء إلى الخارج، حسب تعاليم ما يعرف بـ "الدفاع السلبي."

لاحقا، خلال الليل، شعرت بأنها تود أن تفضي إلي بما في طويتها، لكنها كانت تتردد. لماذا الحي الجامعي، جناح الولايات المتحدة، بينما هي لم تكن لا طالبة ولا أمريكية؟ لكن، على أي حال، فاللقاءات الحقيقية هي تلك التي تجمع شخصان يجهلان كل شيء عن بعضهما بعض، وحتى الليل، في غرفة فندق. أخبرتها: "منذ قليل، كان زبناء مقهى "66" يتصرفون بغرابة، لحسن الحظ لم تكن هناك غارة". نعم، هؤلاء الأشخاص، حولنا، الذين يتكلمون بصوت عال تحت هذا الضوء الأبيض، لماذا انتهى بهم المطاف في هذه الساعة المتأخرة في الحي اللاتيني الريفي؟ بصوت خافت همست: "أنت تطرح الكثير من الأسئلة." دقت ساعة معلنة عن ربع الساعة. نبح الكلب. من جديد، شعرت بأنني أوجد في مكان بعيد جدا عن باريس بحيث إنه بدا لي أنني أسمع، تحديدا قبل أن يحل الصباح، ضوضاء قبقاب يبتعد. سومور؟ بعد مرور سنوات، ذات زوال بينما كنت أمشي حوالي فال دو غراس، حاولت العثور على هذا الفندق. لم أكن قد دونت لا اسم أو عنوان الفندق في المذكرة السوداء، كما نتفادى تدوين التفاصيل الأكثر حميمية في حياتنا، خشية أن نفقد سطوتنا عليها ما أن تصير بين صفحات من ورق.

في مكتبه بمقر جيسفر، كان هذا المدعو لانغلي قد سألني: "كنت تقيم في غرفة بفندق أونيك، أليس كذلك؟" اتخذ صوته نبرة شاردة، كما لو أنه يدرك مسبقا الإجابة وكل ما ينتظره مني في المقابل هو تأكيد بسيط. "لا - وكنت تتردد على مقهى "66"؟" هذه المرة، نظر إلي مباشرة في العينين. اندهشت لأنه قال مقهى "66." "كنت أعتقد حتى الآن بأن داني وحدها هي من تطلق هذا الاسم على هذا المكان. فحتى أنا الآخر، كان يحدث لي أن أعطي المقاهي أسماء أخرى غير تلك التي تحملها، أسماء تنتمي إلى فترة سابقة من تاريخ باريس، وأن أقول: "كنا نتواجد عند تورتوني،" أو: "على الساعة التاسعة بروشي دو كانكال."

المقهى "66"؟ بدوت كما لو كنت أنقب في ذاكرتي. تناهى إلي صوت داني من جديد وهي تقول بصوت أصم: "تظن أنك توجد في بيغال."

أجبت هذا المدعو لانغلي وأنا أتظاهر بأنني أفكر في الأمر: "مقهى "66" في بيغال؟"

"لا على الإطلاق... إنه مقهى يوجد في الحي اللاتيني."

ربما لا يجب التذاكي.

"آه! نعم... لا بد أنني ذهبت إلى هناك مرة أو مرتين...

"خلال الليل؟"

ترددت في الإجابة. كان حريا بي إخباره: في النهار، حينما تكون القاعة مفتوحة وأغلب الزبائن يتحلقون في السطح إلى جانب سياج لوكسمبورغ. في النهار، مقهى لا يتميز عن باقي المقاهي. لكن لماذا افتراء الكذب؟

"نعم. خلال الليل."

أذكر القاعة وهي غارقة في الظلمة حولنا وهذه البقعة الضيقة من الضوء، في الداخل، كما لو كانت ملجأ سريا بعد ساعة الإغلاق. وهذا الاسم، مقهى "66"، أحد الأسماء التي تتداول بصوت خفيض، بين الرواد...

"هل كنت بمفردك؟"

"نعم، بمفردي."

كان يتصفح ورقة على المكتب حيث يبدو لي أنني لمحت قائمة بأسماء. كنت آمل أن لا يكون اسم داني ضمنها.

"ولم تكن على علاقة بأي شخص من بين رواد مقهى "66"؟

"لا."

كان يركز دائما نظره على الورقة. لشد ما رغبت أن يتلو علي أسماء "رواد مقهى 66" وأن يحدثني قليلا عن هوية كل هؤلاء الأشخاص. ربما كانت داني على علاقة ببعضهم. أو ربما يكون أغاموري. فلا جيرار مارسيانو أو دوفيلتز أو بول شاستانيي كانوا على ما يبدو يترددون على مقهى "66." لكنني لم أكن متأكدا من أي شيء.

أخبرته: "لابد أنه مقهى خاص بالطلبة، شأنه شأن المقاهي الأخرى، في الحي اللاتيني".

"خلال النهار نعم. لكن ليس خلال الليل."

كان صوته قد اكتسى نبرة جافة، تكاد تحمل تهديدا مبطنا.

أخبرته، بينما كنت أحاول جاهدا أن أكون أكثر لطفا، أكثر مهادنة: "كما تعلم، فأنا لم أكن من "رواد الليل لمقهى 66."

تفحصني بعينيه الزرقاوين الكبيرتين، بينما كانت نظرته لا تشي بأي تهديد؛ كانت نظرة متعبة وبالأحرى تنطق بالعطف.

"على أي، فاسمك لا يرد في القائمة."

بعد مرور عشرين سنة على ذلك، في الملف الذي وقع بين يدي بفضل هذا الشخص المدعو لانغلي - بقي دائما يذكرني؛ ثمة حراس يقومون عند كل ملتقى طريق من طرق حياتك - تظهر قائمة "رواد مقهى 66" وعلى رأسها يرتسم شخص يدعى "ويلي دي كوبلان." سأنقل القائمة إلى مذكرتي حينما يكون هناك متسع من الوقت. كما سأنقل أيضا بعض الصفحات من هذا الملف التي تكمل وتتقاطع مع ملاحظات مذكرتي العتيقة السوداء. البارحة فقط مررت أمام "مقهى 66" حتى أتأكد إذا ما كان هذا الجزء من المقهى لا يزال قائما. دفعت الباب الزجاجي، الباب ذاته الذي كنا قد مررنا عبره في الماضي، داني وأنا، والذي لمحت خلفه داني جالسة إلى المنضدة برفقة أغاموري تحت هذا الضوء المشع، الشديد البياض. جلست أمام المشرب. كانت الساعة تشير إلى الخامسة زوالا وكان الزبناء يحتلون الجزء الآخر من المقهى، ذلك الجزء الذي يفضي إلى سياج لوكسمبورغ. بدت الدهشة على محيا النادل حينما طلبت مشروب كوانترو، لكنني قمت بذلك إحياء لذكرى داني. وحتى أشرب نخب هذا المدعو "ويلي دي

كوبلان،" الذي يرتسم على رأس القائمة والذي لا أعلم شيئا عن وجوده.

سألت النادل: "يبقى المقهى مفتوحا دائما حتى ساعة متأخرة من الليل، أليس كذلك؟"

قطب جبينه. بدا أنه لم يستوعب سؤالي. كان شابا في حوالي الخامسة والعشرين من عمره.

"يغلق المقهى أبوابه كل مساء على الساعة التاسعة، سيدي."

"هذا المقهى يدعى "مقهى 66"، أليس كذلك؟"

نطقت بهذه الكلمات بصوت حملت نبراته أجواء العالم الآخر. حدق في بنظرة قلقة.

"لماذا "مقهى 66 "؟ إنه يدعى مقهى لوكسمبورغ، سيدي."

فكرت في قائمة "رواد مقهى 66". نعم، سأنقلها حينما يكون لدي متسع من الوقت. لكن البارحة زوالا، طفت بعض الأسماء من هذه القائمة إلى سطح الذاكرة: ويلي دو كوبلان، سيمون لانجلي، أورفانوكاديس، الدكتور لوكاسزيك الملقب بـ "الدكتور جون،" جاكلين غيلوب وامرأة تدعى ميريي سامبييري التي كان لانغلي قد جاء على ذكرها في المرة الأولى.

في الخلف، وسط القاعة وعلى السطح، ثمة سائحون وطلبة. حول المنضدة الأقرب، جلس مجموعة من طلبة مدرسة المعادن كنت أصغي لحديثهم بشرود. كانوا يحتفلون بشيء ما، لا بد أنه بداية عطل نهاية السنة الدراسية. كانوا يلتقطون صورا بواسطة هواتف الآيفون في الضوء الكابي، المحايد للحاضر. زوال تافه. ومع ذلك، فهناك، خلال الليل البهيم، كانت أضواء النيون تبهر نظري وبالكاد كنا نستطيع، أنا

وداني، أن نصغي لبعضنا البعض وسط الضوضاء والأحاديث التي لم تَجر أبدا والتي كانت تدور بين ويلي كوبلان وكل تلك الظلال التي كانت تحيط بنا.

* * *

إذا كنت أذكر جيدا، فإن "مقهى 66" لم يكن يتميز فعلا عن فندق أونيك أو عن الأماكن الأخرى في باريس خلال تلك الفترة. في كل مكان، ثمة جو مشحون بالتهديد يمنح لونا خاصا للحياة. وهذا حتى حينما أكون خارج باريس. ذات يوم، طلبت مني داني مرافقتها إلى منزل ريفي. على إحدى صفحات مذكرتي السوداء يوجد: "منزل ريفي. رفقة داني." لا شيء أكثر. على الصفحة السابقة، أقرأ: "داني، جادة فيكتور هيغو، مبنى ذا مخارج مزدوجة. الموعد على الساعة السابعة مساء أمام المخرج الآخر للمبنى، زقاق ليونارد دا فينتشي."

كنت أنتظرها مرارا هناك، دائما في الساعة ذاتها أمام المدخل ذاته. في تلك الأثناء، كنت أربط هذا الشخص الذي "تقوم غالبا بزيارته" - عبارة مستهلكة فاجأتني وهي تتلفظ بها - بالمنزل الريفي. نعم، إذا ما كنت أذكر جيدا، فقد سبق لها أن أخبرتني بأن هذا "المنزل الريفي" يعود لـ "الشخص" الذي يقيم في جادة فيكتور هيغو.

"المنزل الريفي رفقة داني." لم أدون اسم القرية. وأنا أتصفح المذكرة السوداء، راودتني أحاسيس متناقضة. إذا كانت هذه الصفحات تفتقر إلى تفاصيل محددة، فإنني في هذه الفترة لم أكن، كما كنت أعلم جيدا، أفاجأ بأي شيء. ربما السبب في ذلك يعود إلى لامبالاة وطيش الشباب؟ لكنني أعيد قراءة بعض الجمل، بعض الأسماء، بعض

الإشارات ويبدو لي بأنني كنت أبعث برسائل من جهاز مورس صوب فترة لاحقة. نعم، يبدو الأمر كما لو أنني كنت أريد أن أترك علامات سوداء على صفحات بيضاء، علامات ستمكنني، في مستقبل بعيد، من تسليط الضوء على ما كنت قد عشته دون أن أستوعبه. رسائل بشفرة مورس طبعت دون انتباه، في خضم فوضى عارمة. وكان يجب التريث لسنوات وسنوات قبل أن أتمكن من تفكيك لغزها.

على صفحة المذكرة حيث دونتُ بالحبر الأسود "منزل ريفي رفقة داني" تبرز قائمة لقرى كتبتها بقلم أزرق، منذ عشر سنوات خلت حينما فكرت في البحث عن هذا "المنزل الريفي." هل كان يقع في أطراف باريس أو على مسافة أبعد، باتجاه لا سولون؟ لم أعد أذكر لماذا اخترت هذه القرى دون أخرى. أظن أن جرس اسمها يذكرني بواحدة منها حيث توقفنا للتزود بالوقود. سان ليجير دي أوبي. فوكور توا. دورميل سير لورفان. أورموي لا ريفيير. لوريز لو بوكاج. شيفري أون سيري. بواسمون. آشير لا فوري. لا سيل أون إيرموي. سان فانسون دي بوا.

كنت قد اقتنيت خارطة ميشلان احتفظت بها وكانت تحمل الإشارة التالية: 150 كلم حوالي باريس. شمال جنوب. ثم خريطة للاسولون. قضيت بعض الزوالات منهمكا فيها أحاول أن أحدد بواسطتها طريقنا في سيارة كان بول شاستانيي قد أعارها لنا - لم تكن سيارة لانسيا حمراء، بل سيارة لا يثير مظهرها الانتباه كثيرا، بطلاء رمادي. غادرنا باريس من مخرج سان كلود، نفق الطريق السيار. لماذا هذا الطريق نحو الشرق بينما يقع المنزل الريفي في مكان ما في الجنوب، جهة لا سولون؟

لاحقا، أسفل صفحة من صفحات المذكرة حيث كنت قد راكمت بعض الملاحظات حول الشاعر تريستان كوربيير، اكتشفت كلمة مكتوبة بأحرف صغيرة: فويوز، يليها رقم هاتف. كان من الممكن أن يبقى اسم القرية مطمورا وسط الملاحظات المكتوبة بخط ضيق بخصوص كوربيير. فويوز. 437.41.10. لكن نعم، مرة، التحقت بداني في المنزل الريفي وتركتْ لي رقم الهاتف. أخذت حافلة من مخرج سان كلود. توقفت الحافلة في مدينة صغيرة. من مقهى، اتصلت بداني. جاءت لتصطحبني في سيارة - دائما تلك السيارة الرمادية التي كان بول شاستانيي قد أعارها لنا. كان "المنزل الريفي" يبعد عن المكان بحوالي عشرين كيلومترا. بحثت عن مكان فويوز: لا توجد في سولون، ولكن في لور إي لوار.

437.41.10. تتوالى الرنات دون أن يكون هناك من يرد على مكالمتي، وقد اندهشت أنه بعد مرور كل هذه السنين لا يزال هذا الرقم صالحا. ذات مساء، حينما قمت مرة أخرى بالاتصال بهذا الرقم، تناهى إلي صرير وأصوات مختنقة. ربما يتعلق الأمر بهذه الخطوط المهجورة منذ زمان، أرقام هواتف لم تكن معروفة سوى من طرف بعض المريدين الذين يستعملونها للتواصل سرا. انتهى بي المطاف أخيرا إلى تمييز صوت امرأة تكرر دوما الجملة ذاتها دون أن أتمكن من التقاط الكلمات - مكالمة رتيبة كقرص مشروخ. هل هي صوت الساعة الصوتية؟ أم صوت داني وهي تكلمني من زمان آخر ومن ذلك المنزل الريفي الضائع؟

تصفحت دليل هاتف قديم للور إي لوار كنت قد عثرت عليه ضمن المئات الأخرى في مخزن لسوق للرقاقات بسان أوين. لم يكن

هناك سوى العشرات من المنخرطين في فويوز، وكان الرقم موجودا هناك، رقم سري يشرع أمامك "أبواب الماضي." لقد كان ذلك عنوان رواية بوليسية كنت قد اخترتها من مكتبة المنزل الريفي وكنا قد قرأناها معا، أنا وداني. فويوز (أور إي لوار.) قضاء سونونش. السيدة دورم. هل كانت داني قد تلفظت بهذا الاسم أمامي؟ ربما قد لا تزال على قيد الحياة. يكفي الاتصال بها. ستعرف ما حل بداني.

اتصلت بمصلحة الهاتف. طلبت الرقم الجديد لِلا باربوري، بِفويوز في أور إي لوار. وكما في اليوم السابق حينما كنت أتحدث إلى نادل لوكسمبورغ، كان صوتي يبدو صوتا من العالم الآخر. "فويوز، تقول سيدي؟" أطبقت سماعة الهاتف. ما الفائدة؟ بعد مرور كل هذا الوقت، لا شك أن اسم السيدة دورم قد اختفى من دليل الهاتف. لا شك أن المنزل شهد سلسلة من السكان غيروا مظهره بحيث لن أتعرف عليه. وضعت على الطاولة خارطة أطراف باريس وقد خاب أملي أنني ضيعت خارطة سولون التي شدت اهتمامي الزوال بكامله. قادني الجرس المدغدغ لكلمة "سولون" في اتجاهات خاطئة. كما تذكرت أيضا المستنقعات التي لا تبعد كثيرا عن المنزل والتي جعلتني أذكر هذا البلد. لكن خرائط ميشلان تبقى دون أهمية. بالنسبة لي، سيبقى هذا المنزل قابعا في منعزل خيالي للا سولون.

البارحة مساء، تتبعت بالسبابة، على الخارطة، الطريق الذي ينطلق من باريس إلى فويوز. كنت أسترجع مجرى الزمن. لم يعد للحاضر أية قيمة، بأيامه المتشابهة الرتيبة في ضوئها الكئيب، ضوء هو يقينا ضوء الشيخوخة حيث يغمرك الإحساس بأنك إنما تحيا من يوم لآخر. فكرت بأنني سأجد من جديد طابور الأشجار، العوارض

البيضاء. سيتقدم الكلب ببطء نحوي، على طول الممر. كنت غالبا ما أفكر أنه باستثنائنا نحن الاثنين فقد كان الساكن الوحيد للمنزل، إن لم يكن مالكه الفعلي. كل مرة نعود فيها إلى باريس، كنت أخبر داني: "علينا أن نأخذ هذا الكلب معنا." كان ينتصب أمام السيارة الرمادية وهو يتابع طقوس رحيلنا. وبعد ذلك، حينما نصعد السيارة وتوصد الأبواب، يتجه نحو المكان الذي يخصص لخزن الخشب حيث كان عادة ينام في غيابنا. وكل مرة، كنت أشعر بالحسرة حينما نعود إلى باريس. كنت قد طلبت من داني إذا ما كان ممكنا أن نبقى لمدة أطول في هذا المنزل. سيكون ذلك ممكنا، أخبرتني، لكن ليس الآن. لقد أخطأت أو ربما قد أكون أسأت الفهم إذ لا توجد أية علاقة بين هذا "الشخص" الذي يقيم في جادة فيكتور هيغو الذي تزوره غالبا وهذا المنزل. صاحبة المنزل - نعم، يتعلق الأمر بامرأة - كانت الآن في الخارج. شرحت لي بأنها تعرفت عليها في السنة الماضية حينما كانت تبحث عن عمل. لكنها لم تحدد أي نوع من "العمل." لا أغاموري ولا الآخرون الذين لقبتهم بـ "عصابة مونبارناس" - بول شاستانيي، دوفيلتز، جيرار مارسيانو والأشكال الأخرى التي كنت أراها غالبا في بهو فندق أونيك - لا يعلمون أي شيء عن وجود هذا المنزل. قلت: "ذلك أفضل." ابتسمت. على ما يبدو، فقد كانت تشاركني الرأي. ذات مساء، أضرمنا نارا وجلسنا على الأريكة الكبيرة أمام المدفئة. كان الكلب يقعى عند أرجلنا، وهكذا أخبرتني بأنها تأسف لأنها استعارت سيارة بول شاستانيي الرمادية. كما أضافت بأنها تريد قطع صلتها مع هؤلاء "الأوغاد." اندهشت لاستعمالها هذه الكلمة، هي التي كان كلامها دائما محسوبا وغالبا ما تلزم الصمت. مرة أخرى، لم يكن يساورني

الفضول لكي أسألها عن علاقتها تحديدا بهؤلاء "الأوغاد" ولماذا أخذت غرفة بفندق أونيك تحت تأثير أغاموري. في الحقيقة، لم تكن تنتابني الرغبة في طرح أية أسئلة وسط السكينة التي تعم هذا المنزل الذي يحميه ستار الأشجار والعوارض البيضاء.

ومع ذلك، ذات زوال، حينما عدنا أدراجنا من نزهة على طريق مولان دي تريل - الأسماء التي يعتقد المرء أنه نسيها، أو التي لا نتلفظ بها خشية أن تثير الأشجان، تنبعث إلى سطح ذاكرتنا، وليس الأمر مؤلما كما يبدو للوهلة الأولى - وكان الكلب يسير أمامنا تحت شمس الخريف، وما أن أوصدنا باب المنزل حتى تناهى إلينا صوت محرك. كان الصوت يتدانى. أمسكتني داني من يدي وأخذتني إلى الطابق الأول. في الغرفة، أشارت إلي بأصبعها كي أجلس وانتصبت عند حافة إحدى النوافذ. توقف هدير المحرك. ثمة صوت إغلاق باب. صوت وقع أقدام في الجزء من الممر المغطاة بالحصى. سألت: "من؟" لم تحر جوابا. تسللت حتى النافذة. سيارة ضخمة سوداء من نوع أمريكي. يبدو لي أن شخصا ما لا يزال عند المقود. رنة جرس. ثم رنتين. ثم ثلاث رنات. في الأسفل، نبح الكلب. كانت داني متجمدة وكانت تضغط على الستار بيدها. صوت رجل: "هل من أحد بالداخل؟ هل يوجد أي أحد؟ هل تسمعونني؟" صوت قوي بنبرة خفيفة بلجيكية، أو سويسرية، أو بالأحرى تلك النبرة الدولية للذين لا نعرف تحديدا ما هي لغتهم الأم، والتي لا يعرفونها هم أيضا. "هل من أحد؟"

طفق الكلب ينبح بقوة أكثر فأكثر. كان قد بقي في المدخل ولو كان الباب قد أغلق بشكل خاطئ، لتمكن من فتحه بضربة من قائمه. همستُ: "ألا تعتقدين بأن هذا الشخص قد يفتح الباب؟"

حركت رأسها يمنة ويسرة علامة النفي؛ كانت قد جلست على طرف السرير، الذراعان مضمومتان. كان وجهها يشي بالملل أكثر منه بالخشية؛ كانت هناك، جامدة في مكانها، وقد طأطأت رأسها. أما أنا، فكنت أظن بأن هذا الشخص سينتظر في القاعة وسيكون علينا من الصعب مغادرة المنزل لتجنبه. لكنني حافظت على برودة أعصابي. فغالبا ما كنت أجد نفسي في أوضاع مشابهة، هاربا من الأشخاص الذين أعرفهم، ذلك أنه كان ينتابني على حين غرة شعور بالنفور من الحديث إليهم. كنت عادة أنتقل إلى الرصيف الآخر حين اقترابهم أو ألجأ إلى مدخل بناية في انتظار مرورهم. حدث لي مرة أن غادرت عبر نافذة في الطابق السفلي لتجنب شخص كان قد قام بزيارتي دون موعد سابق. أعرف الكثير من المباني ذات المخارج المزدوجة والتي أحتفظ بقائمة لها في مذكرتي السوداء.

توقفت رنات الجرس. كما أن الكلب هو الآخر توقف عن النباح. من النافذة، شاهدت الرجل وهو يتجه نحو السيارة المركونة على مستوى سلالم المدخل. رجل أسمر ذو قامة كبيرة إلى حد ما، يرتدي جاكيتة من الفرو. مال نحو النافذة التي بقي زجاجها مفتوحا وتحدث إلى الشخص الذي يمسك بالمقود والذي لم أتمكن من التعرف على ملامحه. بعد ذلك صعد إلى السيارة، لتنطلق الأخيرة على طول الممر.

خلال المساء، أخبرتني بأنه من الأفضل أن لا نشعل الأضواء. سحبت الستائر في الصالة وفي الغرفة التي كنا نتناول فيها طعامنا. كنا نضيء المكان بواسطة الشموع. سألتها: "هل تعتقدين بأنهم سيعودون؟" هزت منكبيها. أخبرتني بأن الأمر لا شك يتعلق بأصدقاء صاحبة المنزل. كانت تحبذ عدم اللقاء بهم، وإلا لكان عليها أن تتحمل

"أعباءهم على عاتقها." بين الفينة والفينة، كانت عبارة متداولة كهذه تجد طريقها إلى لسانها المهذب جدا. هناك وسط العتمة، وسط الستائر المسدلة، كنت أفكر بأننا نوجد في هذا المنزل عُنوة. وقد بدا لي ذلك تقريبا أمرا عاديا، ما دمت أنني اعتدت العيش دون أدنى درجة من الشرعية، شعور ينتاب أولائك الذين كان لهم والدين صالحين، شريفين وينتمون إلى وسط اجتماعي محدد المعالم. في ضوء الشمعة، كنا نتحدث بصوت خفيض حتى لا يتناهى صوتنا إلى الخارج، كما أنها هي الأخرى لم تندهش لهذا الوضع. دون أن أعلم الكثير عنها، كنت على يقين بأننا كنا نشترك في الكثير من الأمور وبأننا ننتمي إلى العالم ذاته. لكنني كنت سأجد حرجا في تحديد أي عالم هو.

لمساءين أو ثلاثة لم نشعل الأضواء. باختصار شديد، شرحت لي بأنه لم يكن لها "الحق" تماما في التواجد في هذا المنزل أصلا. كانت فقط تحتفظ بمفتاح له منذ السنة الماضية. كما أنها لم تُعلم "صاحبته" بأنها تعتزم قضاء بعض الوقت هنا. عليها أن تتحدث إلى الحارس الذي يتكلف أيضا بالمنتزه والذي سنلتقي به آجلا أم عاجلا. كلا، لم يكن المنزل مهجورا، كما كنت أعتقد. مرت الأيام. حل الحارس في الصباح، ولم يتفاجأ لوجودنا. رجل صغير القامة، شعره رمادي، يرتدي سروالا من القطيفة المضلعة وسترة صيد. لم نقدم له أي تفسير، وهو الآخر لم يطرح علينا أي سؤال. بل إنه أخبرنا بأننا إذا ما كنا في حاجة إلى أي شيء، فيمكنه أن يحمله لنا. أقلنا مرات عديدة، رفقة الكلب، لنشتري حاجياتنا من شاتونوف أون تيميريس، كما كان يأخذنا، إلى مكان أقرب، بمايبو ودامبيير سور بلِيفي. كانت هذه الأسماء تهجع في ذاكرتي، لكنها لم تتلاش أبدا. ومع ذلك، فقد انبثقت البارحة مساء ذكرى

مطمورة. أيام قليلة قبل انطلاقنا إلى فويوز، كنت قد رافقتها حتى بناية في جادة فيكتور هيغو. هذه المرة، طلبت مني ألا أنتظرها في الجهة الأخرى، أمام مدخل زقاق ليونارد دا فينتشي، لكن في مقهى يبعد قليلا على الساحة. لم تكن تعلم متى ستغادر. انتظرتها حوالي الساعة. حينما التحقت بي كانت شاحبة تماما. طلبت مشروب الكوانترو وجرعته كما هو لكي تحصل على ما سمته "قوة دفع." وبعد ذلك أدت ثمن المشروبات بورقة نقدية من فئة الخمس مائة فرنك سحبتها من إضبارة يحيط بها شريط من الورق الأحمر. اختفت هذه الإضبارة حينما استقللنا قطار الأنفاق، ذلك أنه ذلك الزوال لم يتبق لدينا من المال سوى ما يكفي لاقتناء بطاقتين من الدرجة الثانية.

لا باربوري. لو مولان ديتريل. لا فرومبوازيرز. تنبعث الكلمات، كاملة، كما أجساد الخطيبين الذين عثر عليهما في الجبل تحت الثلج، وقد بقيا على حالهما لمئات السنين. لا باربوري. كان اسم المنزل الذي لا أزال أشاهد واجهته البيضاء، المتسقة، بين طوابير الأشجار. منذ ثلاث سنوات، على متن قطار، كنت أقرأ بشرود إعلانات جريدة وأنا ألاحظ بأن عددها تناقص بشكل كبير قياسا بالفترة التي كنت أنقلها إلى مذكرتي السوداء. لم تعد هناك أي عروض أو طلبات عمل. ولا كلاب ضالة. ولا عَرافات. ولا تلك الرسائل التي يبعث بها غرباء: "مارتين. اتصلي بنا: يفون، وخوانيتا وأنا قلقون جدا." ثمة إعلان شد انتباهي: "للبيع. منزل قديم. أور إي لوار. في ضيعة صغيرة بين شاتونوف وبروزول. منتزه. مستنقعات. إسطبلات. الاتصال وكالة باكاردي 02.07.33.71.22." اعتقدت بأنني تعرفت على المنزل. نقلت الإعلان أسفل الصفحة الأخيرة لمذكرتي السوداء العتيقة، على

شكل خاتمة. بيد أن الإسطبلات لم تكن تثير لدي أية خواطر. نعم كانت هناك مستنقعات - أو بالأحرى بِرك حيث كان الكلب يسبح خلال نزهاتنا. لم تكن لا باربوري فقط اسم المنزل، ولكن أيضا اسم الضيعة الصغيرة التي لا شك أن المنزل كان حينها يشكل قصرها. حوالي المكان، ثمة شقوق تخترق الجدران التي انهار نصفها تحت زحف النباتات، لا شك أنها الهياكل القديمة لمباني وأنقاض دار عبادة ولما لا أنقاض إسطبل. ذات زوال بينما كنا نتجول رفقة الكلب - كان الفضل في اكتشاف هذه الأنقاض يعود له، كان يقودنا في نفس الوقت نحوها، كما لو كان كلب كماء -كنا نضع مشاريع لإعادة كل شيء إلى حالته الطبيعية كما لو كنا أصحاب المكان. ربما أن داني لم تجرؤ على إخباري، لكن هذا المنزل كان يعود فعلا، منذ قرون كثيرة، إلى أجدادها، أسياد لا باربوري. وكانت منذ مدة ترغب في العودة سرا لزيارته. هذا على الأقل ما كنت أرغب في تخيله.

نسيت في لا باربوري المئات من الصفحات من مسودة كنت أكتبها انطلاقا من الملاحظات التي دونتها في مذكرتي السوداء. أو بالأحرى، كنت قد تركت المسودة في القاعة حيث كنت أشتغل، معتقدا بأننا سنعود في الأسبوع المقبل. لكننا لم نتمكن أبدا من العودة، مع أننا تركنا هناك وللأبد الكلب والمسودة.

خلال كل هذه السنوات، كنت أفكر مرات ومرات كيف كان بوسعي استعادة هذه المُسودة، كما يستعيد المرء ذكرى ما- إحدى تلك الأشياء المرتبطة بلحظة من لحظات حياتك: وردة مجففة، بأوراق أربعة- غير أنني لم أعد أعرف مكان المنزل الريفي. ناهيك عما كان ينتابني من خمول وخشية كلما شرعت بتصفح المذكرة السوداء العتيقة إذ كان يلزمني الكثير من الوقت لاكتشاف اسم القرية ورقم الهاتف، حيث أنها كانت مدونة بحروف صغيرة جدا.

اليوم، لم تعد هذه المذكرة السوداء تثير في نفسي أي خوف أو جزع؛ على العكس فهي تسعفني في الانزياح نحو الماضي، عبارة ترسم بَسمة على محياي. لقد كانت عنوان رواية، رجل ينزاح نحو ماضيه، كنت قد عثرت عليها في خزانة المنزل - بعض رفوف الكتب، إلى جانب إحدى نوافذ القاعة. الماضي؟ لكن كلا، لا يتعلق الأمر بالماضي، ولكن بحقب في حياة مستوحاة من حلم، حياة لا زمانية، كنت أنتزعها، صفحة إثر صفحة، من حياة كئيبة سارية لأهبها شيئا من الظل والضوء. ذلك الزوال، كنا في الحاضر، كان المطر يهمي، كما أن الأشخاص والأشياء كانت غارقة في هالة من القتامة، وكنت أنتظر بتحرق حلول الليل حيث تنفصل الأشياء عن بعضها بعض بطريقة محددة، بفضل التناقضات تحديدا للظل والضوء.

خلال مساء آخر، كنت أقطع شوارع باريس بواسطة سيارة وقد تأثرت لهذه الأنوار والظلال، لهذه الأنواع المختلفة من أعمدة الكهرباء أو كشافات الضوء على طول شارع أو عند زاوية زقاق التي ينتابني إزاءها إحساس بأنها كانت تبعث لي بإشارات. لقد كان الشعور ذاته الذي تستشعره وأنت تتأمل لمدة طويلة نافذة مضاءة: شعور هو في نفس الآن مزيج من الحضور والغياب. خلف الزجاج، تتراءى الغرفة فارغة، لكن شخصا ما كان قد ترك الضوء معتلقا. لم يكن بالنسبة لي هناك أي حاضر أو ماض. كان الكل يتداخل، كما هو الحال في هذه الغرفة الفارغة حيث يشعشع الضوء ليلة بعد ليلة. أحلم غالبا بالعثور على المسودة. أدخل القاعة ذات الأرضية السوداء والبيضاء وكنت أفتش الأدراج، أسفل رفوف الكتب. أو ربما أن مراسلا غامضا أعجز عن تفكيك اسمه على ظهر المظروف بعد كلمة "المرسل،" سيرسلها لي بواسطة البريد. كما أن خاتم البريد يشير إلى السنة حيث ذهبنا نحن الاثنين، داني وأنا، إلى هذا المنزل الريفي. غير أنني لا أصاب بالدهشة لكوني لم أتوصل بالطرد البريدي إلا بعد مدة طويلة. بكل تأكيد، لا يوجد ماض أو حاضر. بفضل الملاحظات المدونة في المذكرة السوداء، أذكر بعض الفصول من هذا المخطوط المخصصة للبارونة بلونش، لماري آن لوروي التي قضت نحبها بواسطة المقصلة في السادس والعشرين من شهر تموز 1794 في سن الواحد والعشرين، بفندق رادزيفيل خلال الثورة؛ أذكر أيضا جان دوفال، وتريستان كوربيير وأصدقاءه، رودولف دو باتين وهيرمين كوشياني... ولا واحدة من هذه الصفحات تهم القرن العشرين حيث كنت أحيا. ومع ذلك، فإذا ما تمكنت من إعادة قراءتها، فستنبعث إلى الوجود الألوان المحددة ورائحة الليالي والأيام التي

دونتها خلالها. حسب ما دونته في هذه المذكرة السوداء، يبدو لي أن فندق رادزيفيل خلال عام 1791 لم يكن يختلف كثيرا عن فندق أونيك الذي يربض في شارع مونبارناس: الجو الباهت ذاته. والآن وأنا أفكر في الموضوع، أتساءل إذا لم تكن هناك قواسم مشتركة بين داني والبارونة بلونش؟ وجدت العناء الكبير في تتبع مسار هذه المرأة. غالبا ما نفقد أثرها مع أنها تتراءى على مدارات صفحات مذكرات كاسانوفا التي كنت أقرأها حينها وبين طوايا بعض التقارير لمفتشي الشرطة في عهد لويس الخامس عشر. وهؤلاء ترى هل تغيروا فعلا منذ القرن الثامن عشر؟ ذات يوم، أسر لي دوفيلتز وجيرار مارسيانو بصوت خفيض بأن فندق أونيك يخضع للمراقبة والحماية في نفس الآن من طرف مفتش من مفتشي الفرقة الدولية. لا شك أنه هو الآخر كان يكتب تقارير. ثم، بعد مرور أكثر من عشرين سنة، في الملف الذي كان قد سلمه لي ذلك الشخص المدعو لانغلي- تفاجأت حقا أنه لا يزال يذكرني بالرغم من كل هذه السنوات، "بالطبع لا، كنت أتعقبك "من بعيد"، أخبرني وهو يبتسم، - يبرز ضمن الوثائق الأخرى تقرير بخصوص داني، مدون بالدقة ذاتها التي اتسمت بها التقارير منذ قرنين بخصوص البارونة بلونش.

على أي حال، لم أشعر بالأسى لفقدان هذه المسودة. لو لم تختف، لما شعرت، كما أظن، بتاتا بالرغبة اليوم في الكتابة. يتلاشى الزمن وينطلق كل شيء من جديد: وكما في السابق، بواسطة نفس النوع من الأقلام وبنفس الخط، أملأ صفحات وأنا أتصفح من جديد الملاحظات المدونة في مذكرتي السوداء القديمة. كان يلزمني تقريبا حياة كاملة للعودة إلى نقطة الانطلاق.

خلال الليلة السابقة، حلمت مرة أخرى بأنني ذهبت إلى مركز البريد وبأنني قصدت الشباك حاملا إشعارا باسمي. في المقابل، حصلت على طرد كنت أعلم مسبقا ما يوجد بداخله: المسودة التي كنت قد نسيتها في لا باربوري، في القرن الماضي. هذه المرة، تمكنت من قراءة اسم المرسل: السيدة دورم. لا باربوري. فويوز. أور إي لوار. وكان خاتم البريد يشير إلى سنة 1966. في الزقاق، أفتح الطرد، وفعلا لا يخيب ظني: المسودة. كنت قد نسيت بأنني خلال هذه الفترة كنت أستعمل أوراقا مربعة الشكل يمكن للمرء أن ينتزعها من هذه الدفاتر ذات الأوراق الليمونية التي تحمل علامة روديا. كما أن الحبر كان أزرقا مشعا، نسيت هذا الأمر أيضا. ثمانية وتسعون صفحة، ذلك أن الصفحة الأخيرة لم تكن قد اكتملت بعد. تزدحم الخطوط إلى جانب الكثير من التشطيبات.

سرتُ رأسا إلى الأمام، وأنا أضغط المسودة إلى ذراعي. لَشد ما كنت أخشى أن أفقدها. نهاية زوال صيفي. مشيت على طول زقاق لا كونفونسيون نحو الواجهة السوداء والسياج الذي يحد مستشفى بوسيكو.

حينما استيقظت، أدركت بأن مركز البريد الذي كنت أقصده خلال الحلم لاستلام الطرد لم يكن سوى المركز الذي كنت غالبا ما أرافق داني إليه لكي تستلم رسائلها. كنت قد سألتها لماذا لا تتوفر على عنوان شخصي. شرحت لي بأنها كانت قد أقامت لبرهة في هذا الحي وأنه منذ ذلك العهد، لم تعد تتوفر على "سكن قار."

لم تكن تتوصل بالكثير من الرسائل. كل مرة، كانت تصلها رسالة وحيدة. كنا نتوقف عادة في مقهى، في الجانب السفلي، في زاوية من

زقاق لا كونفونسيون وشارع فيليكس فور، تحديدا أمام مدخل قطار الأنفاق. وبعد ذلك تدس الرسالة في جيب معطفها. أخبرتني في المرة الأولى ونحن في هذا المقهى: "إنها رسالة من أبيها أو أمها من الضاحية."

كانت تشعر بالأسى لأنها لم تعد تقطن في هذا الحي. حسب ما ظننت أنني أدركته من كلامها - لكنها أحيانا كانت تتناقض في كلامها ويبدو أنها تفتقر إلى الإحساس بما نسميه التعاقب الزمني- فقد كان هذا الحي المكان الأول الذي أقامت فيه حين وصولها إلى باريس. ليس لفترة طويلة. مجرد شهور قليلة. ترددت حالا في إخباري أية حاضرة، أو بلد، قدمت منه بالتحديد. ذات يوم، أخبرتني: "حينما هبطت من القطار في باريس بمحطة ليون..." وقد أثارت اهتمامي هذه العبارة بحيث دونتها في مذكرتي السوداء. فنادرا ما كانت تمدني بإشارة بهذا التحديد. كان ذلك خلال المساء الذي ذهبنا فيه لاستلام بريدها بزقاق لا كونفونسيون، في وقت متأخر كثيرا عن العادة. حينما وصلنا أمام مركز البريد، كان الظلام قد حل وقد كان الوقت يقترب من ساعة الإغلاق. انتهى بنا المطاف في المقهى. قدم لها النادل الذي لا شك أنه يعرفها منذ إقامتها في هذا الحي، دون أن تطلب منه ذلك، كأسا من شراب كوانترو. كانت قد قرأت الرسالة ودستها في جيبها.

"حينما هبطت القطار في باريس بمحطة ليون..." شرحت لي بأنها استقلت ذلك اليوم قطار الأنفاق. بعد الكثير من التوقفات في محطات مختلفة، كانت قد هبطت هنا، بمحطة بوسيكو. ثم أشارت، خلف زجاج المقهى، إلى مدخل محطة قطار الأنفاق. كانت قد أخطأت المحطة وهكذا انتهى بها المطاف أولا بمحطة ميشيل أونج

أوتوي. كنت ألزم الصمت حتى أتركها تسترسل في حديثها، مادمتُ أعلم طريقتها في تجنب سؤال شديد التحديد: كانت تغير مجرى الحديث، كما لو كانت تفكر في شيء آخر، وتبدو كما لو أنها لا تصغي إلى مخاطبها. ومع ذلك، سألتها: "ألم يكن هناك أي أحد للقائك ذلك اليوم بمحطة ليون؟" - لا، لم يكن هناك أي أحد." استأجرت شقة صغيرة، على مسافة قريبة جدا من هنا، بشارع فيليكس فور. أقامت في هذا المكان لبعض الشهور. كان ذلك مرحلة قبل الحي الجامعي. طأطأتُ رأسي. كانت كلمة واحدة، نظرة أكثر إلحاحا، كفيلة بأن تجعلها تغرق في شرنقة صمتها. "بعد قليل سأدلك على المبنى حيث كنت أقيم." تفاجأت لهذا العرض، وخصوصا لصوتها الحزين، كما لو أنها تشعر بالحسرة لمغادرتها هذا المكان. فجأة، غرقتْ في لجة أفكارها. نعم، كانت تمنحني الإحساس في هذه اللحظة بأنها كانت شخصا يريد أن يعود على أعقابه بعد أن اكتشف بأنه سلك طريقا خاطئا. دست الرسالة في جيبها. فالشيء الوحيد الذي يجمعها بهذا الحي أساسا هو مكتب البريد حيث تستلم بريدها.

سرنا ذلك المساء على طول زقاق لا كونفونسيون، باتجاه نهر السين. بعد ذلك، لمناسبتين أو ثلاث، كنا نسلك الطريق ذاته حينما تكون على موعد في الضفة اليمنى، بشارع فيكتور هوغو، وخلال الزوال ذاته رافقتها أولا إلى مكتب البريد حتى تستلم رسالتها كما هي العادة. خلال سيرنا، أشارت إلى كنيسة سانت كريستوف دو جافيل حيث كانت تذهب بانتظام، كما أخبرتني، لتضيء شمعة، ليس لأنها تؤمن فعلا بالله ولكن بالأحرى من باب الشعوذة. كان ذلك خلال بداية وصولها إلى باريس. بسبب ذلك، كان ينتابني دائما حنين خاص

نحو هذه الكنيسة المشيدة من الآجر، ولا أزال حتى اليوم أشعر بالرغبة في الذهاب إلى هذه الكنيسة وأن أضيء أنا الآخر شمعة. ولكن ما الجدوى من ذلك؟

ذلك المساء، على ضفاف نهر السين، لم نستقل قطار الأنفاق بمحطة جافيل كما كنا نفعل عادة للوصول إلى الضفة اليمنى. بدل ذلك، رجعنا على أعقابنا وصعدنا زقاق لا كونفونسيون. كانت ترغب بقوة في أن تدلني على المبنى حيث كانت تقيم. بمحاذاة المقهى، انعطفنا إلى الشارع ونحن نسير على الرصيف الأيمن. حينما صرنا بحذاء المبنى أخبرتني: "سأريك الشقة... لا زلت أحتفظ بالمفتاح." لا شك أنها كانت تتوقع القيام بهذه الزيارة، ما دام أنها كانت تحمل معها المفتاح. أخبرتني أيضا، بعد أن ألقت نظرة على النافذة المظلمة للغرفة الخاصة بالبواب: "دائما ما تكون الحارسة غائبة في هذه الساعة، لكن لا تحدث أي ضوضاء على السلالم." لم تضغط على مفتاح ضوء السلالم. كنا نلتمس سبيلنا على هدى ضوء باهت ينبعث من الطابق السفلي. وهي تستند إلى ذراعي، صعدنا السلالم ونحن نضغط على بعضنا بعض، وكانت تدور بخلدي عبارة جعلتني أرغب في الضحك: "بخطى ذئب." فتحت الباب في الظلمة، ثم أوصدته دون أن تحدث أي صوت. كانت تبحث بتردد عن مفتاح الضوء، وانبعث ضوء أصفر من سقف الممر. حذرتني بأنه من الآن فصاعدا علينا أن نتحدث بهدوء وأ لا نضيء أية أضواء أخرى. مباشرة، على اليمين، يقع الباب المموارب لغرفة أخبرتني بأنها كانت في السابق غرفتها الخاصة. قادتني إلى الممر الذي يوجد أمامنا وقد أضاءه ضوء الردهة. على اليسار، هناك قاعة مؤثثة بطاولة ومنضدة. أهي قاعة الأكل؟ على اليمين، توجد

"الصالة" إذا ما أخذنا بالحسبان الأريكة والخزانة الصغيرة الزجاجية التي تحتوي على مجسمات من العاج. وبما أن الستائر كانت مسدولة، فقد أشعلت مصباحا على طاولة. انبعث ضوء يشبه الضوء الأصفر الآخر، الضوء الشحيح الذي ينبعث من السقف. بالداخل، ثمة غرفة تحتوي على سرير كبير بقضبان نحاسية وعلى جدران الغرفة ورق ملون يضم رسومات زرقاء شفافة. كانت بعض الكتب مكدسة على إحدى الطاولات التي توجد إلى جانب السرير. خشيت فجأة من سماع صوت باب الشقة ينفتح وأن يباغتنا الشخص الذي يقيم هنا. كانت تفتح أدراج الطاولات التي توجد إلى جانب السرير الواحد بعد الآخر وتفتشها. في نفس الآن، كانت تسحب بعض الأوراق وتضعها في جيب معطفها. أما أنا فقد بقيت واقفا، متوترا، وأنا أنظر إليها، في انتظار صوت الباب. فتحتْ إحدى أبواب الخزانة الزجاجية، التي توجد أمام السرير، غير أن الرفوف كانت فارغة. أعادت إغلاقه من جديد. سألتها: "أ لا تظنين بأن شخصا ما قد يأتي؟" هزت منكبيها. كانت تنظر إلى عناوين الكتب، على طاولة السرير. أخذت أحدها، غلافه أحمر، ودسته هو الآخر في جيب معطفها. لا شك أنها كانت تعرف الشخص الذي يقيم هنا، ما دام أن مفتاح الشقة لم يتغير. أطفأت ضوء المصباح على طاولة السرير وبعد ذلك غادرنا الغرفة. بالداخل، كان الضوء الأصفر المنبعث من السقف ومن مصباح الصالة يعكسان الوجه المهترئ لهذه الشقة الصغيرة، بطاولة الطعام من الخشب الغامق، والمجسمات العاجية في الخزانة الزجاجية، والسجادات المهترئة. سألتها: "هل تعرفين الأشخاص الذين يقيمون هنا؟" لم تحر جوابا. لا يمكن أن يكونوا والديها، ما دامت كانت قد وصلت ذات يوم من الضاحية أو

من الخارج إلى محطة ليون. لعله شخص يقيم بمفرده وأجر لها غرفة في شقته.

قادتني نحو هذه الغرفة، هناك، على اليسار، قبل الردهة. لم تشعل الضوء. تركت الباب مشرعا. بواسطة الضوء المنبعث من السقف كنا نتملى الغرفة. ثمة سرير أصغر حجما قياسا بالذي يوجد في الغرفة الأخرى، دون أن يحتوي على فراش. لم تكن الستائر مسدلة، الستائر السوداء ذاتها كما في الفندق الذي انتهينا إليه بزاوية فال دو غراس. مقابل الجدار الأيسر، مقابل السرير، توجد طاولة ترفعها مساند يوجد عليها آلة موسيقية في غشاء جلدي إضافة إلى قرصي موسيقى أو ثلاثة. مسحت بالجهة الخلفية لكمها الغبار عن أغشية الأقراص. أخبرتني: "انتظر لحظة." جلستُ على أريكة السرير. حينما عادت، كانت تحمل في يدها كيسا وضعت بداخلة الآلة والأقراص الموسيقية. جلستْ إلى جانبي وبدا أنها كانت تفكر، كما لو كانت تخشى أن تنسى شيئا ما. أخبرتني بصوت عال: "من المؤسف، أننا لا نستطيع المكوث في هذه الغرفة." ندت عنها ابتسامة متصلبة. كان لصوتها نبرة غريبة في هذه الشقة الفارغة. أغلقنا باب الغرفة وراءنا وكنت أحمل الكيس الذي يحتوي على الآلة والأقراص الموسيقية. أطفأت أضواء الممر. بعد أن فتحت باب البيت، قالت لي: "لا بد أن الحارسة قد عادت. علينا أن نمر بأقصى سرعة ممكنة أمام غرفتها." كنت أخشى أن أتعثر في السلالم وأنا أحمل هذا الكيس في يدي وقد غشي الظلام المكان. كنت أنزل السلالم أمامها. اعتلق ضوء السلالم فتجمدنا في مكاننا للحظة في عتبة الطابق الأول. طرق سمعنا صوت باب يغلق. همست إلي بأن ذلك كان باب غرفة الحارسة. نزلنا من جديد السلالم

تحت أنوار مشعة تتعارض مع الضوء الذي تحجبه ستائر الشقة. في الطابق الأرضي، كان الباب الزجاجي للحارسة مضاء. اضغط على الزر الذي سيفتح الباب الخاص بالسيارات؟ ماذا لو بقي الباب مغلقا؟ من المحال إخفاء هذا الكيس الذي أخذ ينتابني الإحساس بأنه ثقيل جدا وبأنه يمنحني الإحساس بأنني شخص قام بالسطو على منزل. يتعطل الباب، تتصل الحارسة بشرطة الإنقاذ، فتحضر سيارة الشرطة التي نصعدها، نحن الاثنين. ولكن نعم، هذا يتجاوز طاقة المرء، نشعر دوما بالغبن حينما لم يقنعنا آباء طيبون شرفاء خلال سنوات طفولتنا بحقنا غير المثلوم وحتى بتفوقنا الواضح، كيف ما كانت ظروف الحياة. ضغطت على الزر وانفتح باب المبنى. في الزقاق، لم أجد بُدا من المشي بخطوات سريعة، كما أن داني جارت إيقاعي. لعلها كانت تخشى أن تلتقي الشخص الذي يقيم في الشقة.

حينما وصلنا إلى زقاق لا كونفونسيون، ظننت أننا سنتوارى عن الأنظار بمدخل محطة قطار الأنفاق، غير أنها قادتني إلى المقهى الذي كنا عادة نقصده بعد استلامها لبريدها من مركز البريد. كان المكان مقفرا خلال هذه الساعة. جلسنا إلى منضدة، في ركن قصي بالمقهى. قدم لها النادل كأسا من شراب كوانترو، وكنت أتساءل إذا كان من باب الاحتراس أن نظهر للعيان هنا بعد زيارتنا غير الشرعية للشقة. أخفيت الكيس تحت الطاولة. لاحقا، أخبرتني بأنها تشعر بالسعادة لأنها استرجعت هذا الكتاب الذي كانت تحتفظ به منذ مدة طويلة والذي حصلت عليه كهدية خلال سنوات طفولتها. كادت تفقده، خلال مناسبات عديدة، وكل مرة كانت تعثر عليه من جديد، كتلك الأشياء المخلصة التي لا تريد أن تفارقك. كان عنوان الكتاب خدمة

الملكة لصاحبه أنتوني هوب في طبعة قديمة ذات غلاف أحمر مهلهل. ضمن الأوراق التي كانت تنظر إليها، كانت هناك بعض الرسائل، جواز سفر قديم، وبطاقات الزيارة... كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساء، غير أن النادل والشخص الآخر الذي كان رئيسه والذي كان يتحدث في الهاتف، هناك وراء المشرب، بدوا أنهما غفلا عن وجودنا. فجأة قالت: "لقد نسينا الضوء معتلقا في الصالة." وإضافة إلى القلق، فإن هذا الاستنتاج تسبب لها في الحزن أو الندم، كما لو أنه لم يكن بوسعها القيام بحركة في غاية التفاهة والتي تتمثل في العودة إلى شقتها لإطفاء الضوء. "كان هاجس يتملكني بأنني نسيت شيئا ما... كان علي أن أنظر إلى الدولاب في غرفتي حتى أتأكد من أنني لم أترك أيا من ملابسي هناك..." اقترحت عليها، إذا ما عهدت لي بالمفتاح، أن أعود إلى الشقة لكي أطفئ ضوء الصالة وأن أحمل لها ملابسها، لكنني ربما لم أكن بحاجة إلى المفتاح، يكفي أن أقرع جرس الباب. سيفتح لي الشخص الذي يقيم في الشقة الباب، إذا ما كان قد عاد، وسأشرح له بأنني جئت نيابة عنها. أخبرتها بذلك كما لو أن ذلك من المسلمات، على أمل أن توضح لي الأمور أكثر. أدركت في الأخير بأنه لا يجب توجيه أسئلة مباشرة إليها. أخبرتني بصوت هادئ جدا: "لكن لا، هذا مستحيل. عليهم أن يظنوا بأنني مت..." نطقت باندهاش: "مُتتِ؟" فردت: "نعم... في الأخير، اختفيت." ابتسمت لي حتى تخفف من الحدة التي نطقت بها هذه الكلمات. أشرت إليها على أي حال بأن"هم" سيلاحظون بأن شخصا ما ترك الضوء مضاء في الصالة، وأخذ الأوراق، والكتاب، والآلة والأقراص الموسيقية... هزت منكبيها: "سيظنون بأنه شبح." انتابتها فورة ضحك قصيرة. بعد هذا الطوفان

والحزن اللذان فاجآني لديها، بدت مرتاحة. أخبرتني: "إنها امرأة عجوز استأجرتُ غرفة لديها. ولم يكن عليها أن تفهم بأنني سأغادر بين عشية وضحاها دون سابق إنذار. غير أنني أفضل أن أكون حاسمة. لا أحب طقوس الوداع." تساءلتُ إذا ما كان ما أخبرتني به هو الحقيقة أو أنها كانت ترغب في طمأنة جانبي وتجنب المزيد من الأسئلة. لماذا إذا كان الأمر يتعلق بـ "امرأة عجوز" قالت قبل ذلك "هم"؟ لا يهم. هناك في المقهى، لم تكن لدي فعلا الرغبة في طرح أية أسئلة عليها. بدل أن تُخضع الآخرين إلى استجواب، من الأفضل أن تأخذهم بهدوء كما هم. ناهيك عن أنه كان لدي شعور غامض بأنني سأطرح هذه الأسئلة لاحقا. بالفعل، بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات على ذلك، كنت ذات مساء في سيارة عند ملتقى الطرق بميرابو ورأيت زقاق لا كونفونسيون ينفتح أمامي. كان يساورني وهم بأنه يكفي أن أغادر هذه السيارة، أن أتركها وسط هذه الزحمة وأن أسير على الأقدام في الزقاق. سأنعم أخيرا بالجو، وأكون في حالة من الخفة. سأسير متمهلا في هوادة ورفق على الرصيف الأيمن. وفي طريقي، سأذهب لأشعل شمعة في كنيسة سانت كريستوف دو جافيل. وسأجد نفسي في الأعلى إلى حد ما بين المقهى وباب محطة قطار الأنفاق. لن يتفاجأ النادل لرؤيتي، ودون أن أطلب منه أي شيء، سيحمل كأسين من شراب كوانترو بحيث سيضع الواحد منهما قبالة الآخر. سأقرع جرس الشقة لاستعادة ملابسها. المشكل هو أنني كنت أجهل الرقم الفعلي للبناية وبأنه في هذا المكان من شارع فيليكس غور تتشابه الواجهات والمداخل لدرجة يصعب معها التعرف على المكان الصحيح. ذلك المساء أيضا ظننت أنني سمعت صوتها المبحوح إلى حد ما يخبرني: "امرأة عجوز

استأجرت غرفة لديها،" وكان هذا الصوت يبدو لي قريبا... امرأة عجوز... تصفحت الجزء الخاص بالأزقة من الكتاب السنوي حتى أحاول معرفة الرقم. أذكر أننا مررنا أمام فندق وواجهة زجاجية كبيرة حيث اندهشت لمنظر طوابير الهواتف التي تتلألأ في العتمة. ذات زوال حينما كانت تتجه نحو مركز البريد، حددتْ لنا موعدا في المقهى وسرت قليلا على طول شارع فيليكس فور نحو المبنى حيث تسللنا إلى المكان كلصوص خلال المساء الآخر. كان بعض الآباء ينتظرون على الرصيف بناتهم أمام مدرسة للبنات. أكد الجزء الخاص بالأزقة للكتاب السنوي ذكرياتي. هواتف بورغاندر. فندق آفياسيون: كان ذلك قبل المبنى، كنت على يقين من ذلك. لكن مدرسة البنات، رقم 56؟ هل هي قبل أم بعد؟ على أي، فهذا المبنى يقع قبل ملتقى الطرق لشارع وزقاق دورانتون. أردت أن أتأكد من ذلك في عين المكان. لكن ما الفائدة من ذلك؟ تتشابه كل تلك الواجهات إلى حد كبير. "امرأة عجوز استأجرت منها غرفة..." في الكتاب السنوي، يوجد فعلا، في الشقة رقم 62، سيدة تدعى بولي.

مدت لي الكتاب ذا الغلاف الأحمر، خدمة الملكة لصاحبه أنتوني هوب، حتى أضعه في الكيس إلى جانب الآلة والأقراص الموسيقية. سألتها إذا ما كانت قد قرأته. بالطبع، في المرة الأولى، خلال مرحلة الطفولة، حتى النهاية، دون أن تفقه أي شيء. بعد ذلك، قرأت فصلا جزافا. كانت الساعة تشير إلى الساعة التاسعة مساء. أخبرنا النادل بأن المقهى سيغلق أبوابه. انتهى بنا المطاف في الخارج تحت سماء منسولة خيوطا من مطر. حملت الكيس، وكان أحد جيوب معطفها منتفخا بسبب كل الأوراق التي وضعتها فيه. انتظرنا طويلا وصول قطار

الأنفاق، وتواصل انتظارنا، حينما غيرنا القطار بمحطة موت - بيكي. في هذه الساعة، كانت المقطورة فارغة. كانت تنقب في جيبها وتضع جانبا من بين الأوراق الأخرى ما ظننت أنه بطاقات زيارة. حينما انتبهت إلى أنني كنت أتطلع إليها بشيء من الفضول، قالت لي وقد هفت في أساريرها ابتسامة خفيفة: "سأريك كل هذا... سترى... ليس الأمر بهذه الأهمية..." لم تكن تتوق للعودة إلى غرفتها. خلال هذا المساء على متن قطار الأنفاق أشارت لأول مرة إلى المنزل الريفي الذي يمكن أن نقوم بزيارته، لكن يجب أن أبقي الأمر سرا عن الآخرين. والآخرون هم أغاموري والأشخاص الآخرون الذين يتردد عليهم: دوفيلتز، مارسيانو، شاستانيي... سألتها إذا ما كان أغاموري يعلم بأنها كانت تقطن في الشقة التي تقع بشارع فيليكس فور. كلا، إنه يجهل ذلك. لم تتعرف عليه إلا فيما بعد، بالحي الجامعي. كما أنه لا يعلم أي شيء عن وجود المنزل الريفي الذي أشارت إليه للتو أمامي. منزل ريفي يوجد، حسب ما أخبرتني، على بعد مائة كيلومتر من باريس. كلا، فلا أغاموري أو أي واحد من الآخرين كان قد رافقها إلى مركز البريد للحصول على رسائلها. أخبرتها: "إذن أنا الوحيد الذي يعلم بأسرارك؟" سرنا على طول الممر المترامي على جانب شارع مونبارناس وكنا الوحيدين على السلالم المتحركة. أمسكت بذراعي ووضعت رأسها على كتفي. "آمل أن تعرف كيف تحافظ على الأسرار." سرنا على طول الشارع حتى الدوم، ثم عدنا على أعقابنا ونحن نحاذي جدران المقبرة. كانت ترغب في تجزية الوقت حتى تتجنب لقاء أغاموري والآخرين في بهو الفندق. كانت على وجه الخصوص ترغب في تجنب أغاموري. كنت على وشك أن أسألها لماذا عليها أن تشرح له الأمور، لكن بعد تفكير

في الأمر بدا لي ذلك دون جدوى. أظن أنني خلال هذه الفترة كنت أدرك أن لا أحد يرد أبدا على الأسئلة. وبصوت تفيض نبرته بهجة قالت: "يجب أن ننتظر حتى انطفاء أضواء البهو قبل أن ندخل. كما حدث قبل قليل، للصعود إلى الشقة... لكن الحارس الليلي قد يلمحنا..." ونحن نقترب من الفندق، شعرت بدبيب خوف يغمرها. خمنت أنها كانت تأمل أن يكون البهو فارغا. في الأخير انتقلت خشيتها إلي. بدا لي كما لو كنت أسمع صوت بول شاستانيي وهو يخبرني بصوته المعدني: "لكن ماذا تحمل في هذا الكيس؟" ترددت في السير في زقاق الفندق. كانت الساعة تشير تقريبا إلى الحادية عشر مساء. "سننتظر قليلا، أليس كذلك؟" جلسنا على حافة من التراب المتراكم بشارع إدغار كويني. كنت قد وضعت الكيس إلى جانبي. أخبرتني: "كان من السذاجة حقا أن نغادر قبل قليل الصالة دون أن نطفئ الضوء." اندهشت لأنها كانت تعلق كل هذه الأهمية على الموضوع. لكن الآن، بعد مرور كل هذه السنوات، أُدرك هذا الحزن المباغت الذي كان يغشى نظرتها. أنا الآخر، ينتابني شعور غريب حينما أفكر في كل الأضواء التي نسينا إطفاءها في أماكن لم نرجع إليها أبدا... لم يكن الخطأ خطأنا. كل مرة كان علينا أن نغادر على وجه السرعة وعلى رؤوس الأصابع. أنا على يقين بأننا في المنزل الريفي نسينا في مكان ما ضوءا دون أن نطفئه. ماذا لو كنت الوحيد المسئول عن هذا الإهمال أو النسيان؟ اليوم، تتملكني القناعة بأن الأمر لا يتعلق بنسيان أو بإهمال، لكن في لحظة المغادرة كنت عن قصد أترك الأضواء كما هي. لعل ذلك من باب الشعوذة، حتى أطرد سوء الطالع وخصوصا حتى نترك أثرا ما، إشارة ما، تشير إلى أننا لم نكن فعلا غائبين وبأننا سنعود في يوم من الأيام.

همست في أذني: "كلهم موجودون في البهو." كانت قد قررت أن تسبقني في اللحظة التي صرنا فيها بالقرب من الفندق وأن تنظر عبر الواجهة الزجاجية لتتأكد إذا ما كان البهو فارغا والممر سالكا. لم تكن ترغب أن يثير الكيس انتباه الآخرين إلينا. أنا الآخر، كنت أشعر بالضيق بسبب هذا الكيس، كما لو كان الدليل على اقترافنا للتو لعمل مشين، وكان هذا الشعور بالضيق يثير دهشتي الآن. لماذا هذا الشعور الدائم بالريب والذنب؟ ألقيت بدوري نظرة وراء الواجهة الزجاجية. كانوا يجلسون على أرائك نضدت في البهو، بينما كان أغاموري يستند إلى الأريكة التي يجلس عليها كل من مارسيانو والآخرون: بول شاستانيي، دوفيلتز، والرجل الذي يلقبونه بكل بساطة "جورج." كانوا يجلسون على أرائك قديمة من الجلد البني. كان منظرهم يشبه منظر أشخاص في غمرة اجتماع حرب. نعم، لقد كانوا يشعرون بالذنب. لكن إزاء ماذا؟ تساءلت. على أي حال، فهؤلاء الأشخاص ليسوا جديرين بتلقيننا دروسا في الأخلاق. أمسكت بداني من ذراعها وتقدمنا معا إلى الفندق. كان جورج هو أول من تنبه لوجودنا. كان لهذا الرجل وجه يناقض جسده القوي، وكان مستغرقا في لفائف ذاته: وجه ضامر، عيون حالمة، لكن سرعان ما يدرك المرء بأن هذا الوجه يعبر عن العنف بقدر ما يعبر عن ذلك الجسم. وحينما يصافحك، ينتابك شعور مباغت بالقشعريرة، كما لو ينقل إليك ما نسميه السائل الثلجي. تقدمنا نحوهم، وطرق سمعي الصوت المعدني لبول شاستانيي:

"إذن، هل عدتم من السوق؟"

ثم حدق إلى الكيس الذي أحمله في يدي اليسرى.

"نعم... نعم... لقد عدنا من السوق." أخبرته داني بصوت تشي نبراته برقة شديدة. كانت لا شك تحاول أن تلملم أشتات شجاعة ما. كان هدوء أعصابها يدهشني، هي التي كانت منذ لحظات قليلة تبدو قلقة كلما اقتربنا من الفندق. كان الشخص الذي يدعى "جورج" يتأملنا، بوجهه الضامر، وسحنته البيضاء بياضا يظن المرء معه أنه يضع مساحيق. رفع حاجبيه في تعبير عن الاستغراب والارتياب، حركة لاحظت أنه يبديها كلما كان يواجه شخصا ما. لعله الوحيد الذي كانت داني تخشاه على وجه الخصوص. في المرة الأولى الذي التقيت به في البهو، قدمته لي داني: "جورج." بقي صامتا مطرقا واكتفى برفع حاجبيه. جورج: اكتسى جرس هذا الاسم فجأة شيئا ما مقلقا وغامضا يطابق كثيرا سيماء وجهه. حينما غادرنا الفندق، أخبرتني داني: "يبدو أن هذا الشخص خطير." لكنها لم تحدد لي أين يكمن وجه خطورته. هل تعرفه عن كثب؟ فكما أخبرتني، فهو رجل تعرف عليه أغاموري في المغرب. ابتسمتْ وهزت منكبيها: "أوه، كما تعلم، من الأفضل أن نبقى بمنأى عن هذه الأمور..."

اقترح بول شاستانيي: "هل تتناولون كأسا معنا؟"

ردت داني، دائما بنفس الصوت الهادئ: "لقد تقدم الليل قليلا."

كان أغاموري، الذي لم يغير مكانه على مسند الأريكة حيث يجلس جيرار مارسيانو، ينظر إلينا، أنا وداني، وقد علت محياه الدهشة. يبدو لي أنه بدا شاحبا من جراء المفاجأة.

"من المؤسف أنكما لن تنضما إلينا. كنا سنستمتع بشروحاتكما حول مشترياتكم من السوق."

وهذه المرة، كان بول شاستانيي يتوجه بالكلام إلي. لا شك أن هذا الكيس أثار فضوله.

"ستعينني سيدي لوضع الكيس في غرفتي، أليس كذلك؟" استدارت نحوي وهي تضع التكلف بيننا فجأة بينما كانت تشير إلى الكيس. بدا الأمر كما لو أنها تقصد إثارة انتباههم إلى هذا الكيس، ربما نكاية فيهم جميعا.

تبعتها حتى المصعد، لكنها توجهت نحو السلالم. كانت تصعد أمامي. عند عتبة الطابق الأول حيث لن يتمكنوا من رؤيتنا، دنت مني وهمست في أذني:

"من الأفضل أن تذهب. وإلا، فإن ذلك سيتسبب لي في متاعب مع أغاموري."

رافقتها حتى باب غرفتها. أخذت الكيس. ثم قالت بصوت خفيض، كما لو كانت تخشى أن يسمعوننا.

"غدا، عند منتصف النهار، بمقهى القطة البيضاء."

كان المقهى مكان تغشاه إلى حد ما الكآبة على زقاق أوديسا ويضم قاعة خلفية حيث يتوارى المرء وسط بعض الأشخاص الذين يلعبون البليار. كما كان بعض الأشخاص من البروتون يعتمرون قبعات بحارة.

قبل أن تغلق الباب تماما، أخبرتني بصوت صار أقرب إلى الهمس:

"سيكون من الأفضل لو تمكننا من الذهاب إلى المنزل الريفي الذي حدثتك بشأنه."

للنزول، اخترت المصعد. لم أكن أريد أن ألتقي أي واحد منهم

في السلالم. على وجه الخصوص، أغاموري. كنت أخشى أن يطرح علي أسئلة وأن يطلب مني أن أقدم له تفسيرات. مرة أخرى، كنت شاهد عيان على انعدام الثقة أو هذا الخجل الذي لاحظه بول شاستانيي والذي جعله يقول بأننا كنا نسير معا في أزقة رمادية على الجهة الخلفية من مونبارناس.

"إنه لأمر غريب... شاب حساس وموهوب مثلك... لماذا تخلف دائما انطباعا باهتا؟"

في البهو، كانوا لا يزالون يجلسون على الأرائك. كان علي لسوء الحظ أن أمر من أمامهم لمغادرة الفندق، ولم تكن تراودني الرغبة في الحديث إليهم. هز أغاموري رأسه وحدق بي بنظرة باردة على خلاف عادته. ربما كان يراقب باب المصعد ليعلم إذا ما كنت سأبقى أو لا لدى داني. كان بول شاستانيي ودوفيلتز وجيرار مارسيانو يميلون برؤوسهم نحو جورج ويصغون إليه باهتمام، كما لو كانوا يتلقون تعليمات. مررت بسرعة نحو مدخل الفندق، وأنا أتظاهر بعدم الرغبة في إزعاجهم. كنت أخشى أن يمدد أغاموري ساقه. لكن لا، بقي جالسا مع الآخرين. خمنت أن الأمر برمته لا يعدو أن يكون مسألة وقت. غدا، سيستفسر بشأن داني وسأنيخ تحت هذا العبء منذ الآن. لم يكن لدي ما أخبره به. لا شيء. كما أنني لم أعلم أبدا كيفية الإجابة على الأسئلة.

في الخارج، لم أفلح في مقاومة الرغبة في النظر إليهم، وراء الزجاج. واليوم، وأنا أكتب هذه السطور، يبدو لي أنني لا أزال أنظر إليهم، وأنا واقف على الرصيف، كما لو أنني لم أبرح مكاني. كان حريا بي أن أشاهد "جورج"، الشخص الذي قالت داني أنه خطير. لم يعد يراودني

أبـدا الشـعور بـالقلق الـذي يـراودني أحيانـا حينمـا أكـون رفقـة هـؤلاء الأشـخاص ببهـو فنـدق أونيـك. كـان بـول شاسـتانيي، ودوفيلتـز وجـيرار مارسيانو يميلون بهاماتهم نحو "جورج" إلى الأبد وكانوا يعدون ما سماه أغاموري "أعمالهم المشينة." ستكون عواقبهم وخيمة، في السجن، أو ضمن عملية تصفية حسابات غامضة. كان أغاموري، وهو يجلس إلى مسند الأريكة، مستغرقا في صمته وكان ينظر إليهم بنظرة قلقة. لقد كان هو الذي أخبرني: "احترس. بوسعهم أن يزجوا بك في دروب سيئة للغاية. أنصحك بأن تتوقف قبل فوات الأوان." ذلك المساء، ضرب لي موعدا عند مخرج جامعة سانسيي. كان يصر على أن تكون الأمور واضحة بيننا. لكنني فكرت بأنه يحاول إخافتي حتى أتوقف عن لقاء داني. والآن، يوجد هو الآخر هناك وراء الواجهة الزجاجية، إلى الأبد، تعلو محياه تلك النظرة القلقة التي تتعلق بالآخرين الذين يخططون همسا. كانت تراودني الرغبة بدوري أن أخبره: "احترس." أنا، لم يكن لدي ما أخسره. لكنني لم أكن على وعي تام في تلك الفترة. كان يلزمني مرور بعض السنوات لفهم ذلك. إذا لم تخذلني الذاكرة، فقد كان يراودني شعور غامض بأن لا واحد منهم سيزج بي في هذه "الدروب السيئة." لانغلي، حينما استجوبني بمقر الأمن بجيسفر، أخبرني: "كانت لديك فعلا رفقة غريبة." لقد أخطأ. فقد كنت أتطلع إلى كل هؤلاء الأشخاص الذين التقيت بهم من مسافة بعيدة جدا. تلك الليلة، لا أعلم كم من الوقت بقيت واقفا أمام الواجهة الزجاجية للفندق وأنا أراقبهم. في لحظة ما، انتصب أغاموري واقفا، واتجه نحو الواجهة الزجاجية. كان على وشك أن يتنبه إلى أنني كنت واقفا على الرصيف أراقبهم. لم أبرح مكاني قيد أنملة. لا ضير إذا التحق بي في الزقاق.

لكنه بدا ساهم النظرة شارد اللب. انتصب الشخص الذي يدعى "جورج" - الأكثر خطورة، كما يبدو - واقفا والتحق بأغاموري بخطى بطيئة. كانوا على مسافة قليلة مني وراء الواجهة الزجاجية، وكان الآخر بوجهه الضامر وعينيه القاسيتين، لا يراني هو الآخر. لعل الواجهة الزجاجية كانت مظلمة بالداخل، كما هو الشأن بالنسبة لتلك القطع الزجاجية التي لا لون لها. أو ببساطة، كانت هناك العشرات والعشرات من السنين التي تفصلنا عن بعضنا بعض بحيث بقوا مجمدين في الماضي، وسط هذا البهو بالفندق، وبأننا لم نكن نحيا، أنا وهم، في نفس الزمن.

كنت أدون القليل من المواعيد في هذه المذكرة السوداء. كل مرة، كنت أخشى أنني إذا ما أنا حددت مسبقا ساعة وتاريخا للموعد فإن اللقاء لن يتم. ليس بالضرورة أن يضع المرء ثقة عمياء في المستقبل. فكما كان يقول بول شاستانيي، فأنا لم أكن "أخلف انطباعا جيدا." كان يراودني إحساس بأنني كنت أحيا حياة سرية وهكذا فإننا نتجنب ترك آثار والإشارة عن طريق الكتابة إلى استعمال زماننا. ومع ذلك، أقرأ، وسط إحدى صفحات المذكرة: "الثلاثاء. أغاموري. السابعة مساء. سونسيي." لم أكن أعير أية قيمة لهذا الموعد ولم يكن يضايقني أنه كان يبرز بكل حروفه السوداء على صفحة ورق أبيض.

لابد أن ذلك حدث يومان أو ثلاثة بعد وصولنا المتأخر إلى فندق أونيك حينما كنت أحمل الكيس. أصبت بالدهشة حينما توصلت برسالة من أغاموري على عنوان 28 زقاق لود حيث كنت أستأجر غرفة. كيف أمكن له أن يعرف عنواني؟ عن طريق داني؟ أخذتها معي مرات كثيرة إلى زقاق لود، لكن في فترة لاحقة، كما يبدو

لي. كانت ذكرياتي مضطربة. كان أغاموري قد كتب في رسالته: "لا تحدث أي أحد عن هذا الموعد. وبالخصوص داني. يجب أن يبقى هذا سرا بيننا. ستدرك ذلك." سببت لي هذه "ستدرك ذلك" قلقا.

كان المساء قد حل. كنت أنتظره وأنا أتمشى على طول الأرض الخلاء التي توجد قبل البناية الجديدة للجامعة. ذلك المساء، كنت قد حملت معي مذكرتي السوداء، وهكذا لتزجية الوقت، كنت أدون الكتابات التي لا تزال تظهر على بعض المنازل والمخازن التي سيتم تدميرها على حافة الأرض اليباب. أقرأ:

معمل الإخوان سومي للجلود -

بلومي (ب) والأبناء: تاجر جلود

مَدبغات بوغانسي

منزل أ. مارتان

معمل للتمليح بسوق الجلود باريس.

بينما كنت أدون هذه الأسماء، انتابني شعور متزايد بالضيق. أظن أن كتابتي تشهد على ذلك: كتابة متقطعة، لا تكاد تقرأ في النهاية. أضفت بواسطة قلم الرصاص، بخط أكثر ثباتا:

مستشفى الفتيات المائة.

كان لدي هوس لمعرفة كل ما تواتر، على مر الأيام وعبر فترات متعاقبة، على هذا المكان المحدد من باريس. هذه المرة، بدا لي أنني أستنشق الرائحة النتنة للجلود المجنزرة. كان فيلم وثائقي كنت قد شاهدته وأنا في ريعان الشباب والذي أثر في مدى الحياة يطفو إلى الذاكرة: دم الحيوانات. كان يتم ذبح الحيوانات بفوغيرار، وبلا فيليت، ويتم نقل جلودها هنا من أجل بيعها. المئات ثم المئات من الحيوانات

المجهولة. ولم يتبق من كل ذلك سوى أرض يباب، وأيضا لفترة قصيرة، أسماء بعض الاستغلاليين والمجرمين المطبوعة على جدران نصفها تهدم. ذلك المساء قمت بتدوينها في مذكرتي. ترى مالفائدة؟ كنت أفضل معرفة أسماء الفتيات المائة اللواتي كن يتمددن على أرض المستشفى قبل أن تصبح سوقا للجلود.

"تبدو شاحبا جدا... هل من خطب؟"

كان أغاموري ينتصب أمامي. لم أنتبه له وهو يغادر مبنى الجامعة. كان يرتدي معطفه البني الفاتح وكان يحمل ملفا أسود. كنت لا أزال غارقا في لُجة ملاحظاتي. قال لي وابتسامة تشي بالقلق تعلو محياه:

"لكن بإمكانك التعرف علي، أليس كذلك؟"

كنت على استعداد لأريه الأسماء التي دونتها للتو، غير أنه كان ينتابني شعور في هذه الفترة بأن الأشخاص يرتابون من أمرك إذا ما انتبهوا إلى أنك تكتب هناك، منزويا في مكانك. كانوا يخشون بلا شك من أن تسرق منهم شيئا ما، كلماتهم، أجزاء من حياتهم.

"هل كانت المحاضرة مهمة؟"

لم يسبق لي أن كنت طالبا وكنت أتصوره في قاعة كما توجد في المدرسة العمومية، فاتحا القِمطر ليأخذ كتاب النحو ودفتر الإنشاء ويغمس ريشته في المِحبرة.

قطعنا الأرض اليباب ونحن نتحاشى برك الماء. كان معطفه البني الفاتح ومنديله الأسود يدعمان أكثر رأيي: يستحيل أن يكون طالبا. يمكن القول بأنه ذاهب إلى موعد أعمال في بهو فندق جنيف. كنت أخشى أن نسير كما العادة حتى المقهى الموجود بساحة مونج، لكننا سلكنا الطريق المعاكس، نحو حديقة النباتات.

"آمل ألا تتضايق إذا ما تحدثنا بهدوء بينما نقوم بنزهة؟"

كانت نبرة صوته مسترسلة، ودودة، لكنني شعرت بأنه يداري قلقا ما، كما لو يبحث عن الكلمات المناسبة وكان يتلكأ في انتظار أن يكون في مكان بعيد حيث لن يلتقي بأي شخص من معارفه. وهكذا، تحديدا، تمدد زقاق كوفيي أمامنا، موحشا وهادئا حتى نهر السين.

"أردت أن أحذرك..."

نطق هذه الكلمات بجدية. بعد ذلك، غرق في الصمت. ربما، في اللحظة الأخيرة، لم يجرؤ على الخوض في التفاصيل.

"تحذرني مماذا؟"

طرحت عليه السؤال بطريقة أكثر فظاظة. إذا كنتُ "لا أخلف انطباعا حسنا" كما يقول بول شاستانيي- فأنا لم أتبع أبدا نصائح الآخرين. أبدا. وكل مرة كانوا يفاجئون- ويشعرون بالخيبة- لأنني كنت أصغي إليهم بانتباه، حدقتاي مشرعتان تماما كتلميذ نجيب أو شاب جدي. سرنا بمحاذاة بنايات تقع على جانب حديقة النباتات. في تقديري، فقد كان ذلك الجزء من الحديقة الذي تتربع عليه حديقة الحيوانات. كان هناك ضوء شحيح، ووسط هذه العتمة وهذا الهدوء كانت زمجرة الوحوش الضارية تكاد تطرق أسماعنا.

"كان علي أن أخبرك مسبقا... يتعلق الأمر بداني..."

استدرت نحوه، لكنه كان يحافظ على رأسه عاليا وينظر مباشرة أمامه. كنت أتساءل إذا ما كان يريد تحاشي النظر إلي.

"تعرفت على داني في الحي الجامعي... كانت تبحث عن شخص يؤجر لها غرفة هناك وحتى من يمكنه أن يعيرها بطاقة طالب..."

كان يتحدث بهدوء، كما لو يحاول خلال ذلك أن يرفع اللبس عن موضوع شديد الغموض.

"كان لدي الانطباع دائما أن شخصا ما أخبرها بأن تقصدني... وإلا لما كانت لديها أبدا فكرة الحي الجامعي..."

أنا الآخر، كنت غالبا أتساءل كيف كان بوسع فتاة كداني أن تعرف شيئا عن وجود هذا الحي. سألتها ذات مساء حينما رافقتها إلى مركز البريد. أخبرتني: "كما تعلم، فقد جئت إلى باريس لمتابعة دروسي." نعم، لكن دروس ماذا؟

"بفضل صديق في جناح المغرب، أمنت لها بطاقة طالب وبطاقة الإقامة... باسم زوجتي..."

لكن لماذا باسم زوجته؟ توقف عن السير.

"كانت تخشى استعمال بطاقة هويتها... حينما اضطررت إلى مغادرة الحي الجامعي، لم ترد هي الأخرى أن تبقى هناك. عرفتها على الآخرين، بفندق مونبارناس... أظن أنها تمكنت من الحصول على الوثائق المزورة بفضلهم..."

ضغط على ذراعي وقادني إلى الرصيف الآخر. تفاجأت لرغبته المباغتة للمرور إلى الجهة الأخرى من الزقاق. توقفنا أمام مبنى صغير، ربما كان يخشى أن يسترق أحد السمع لكلامه من إحدى النوافذ. على الجهة الأخرى، ليس هناك ما يدعو للخشية. سرنا بمحاذاة السياج الحديدي لسوق الخمر، الغارق في العتمة والذي كان يفوق الزقاق وحشة وهدوءا.

سألته: "ولكن لماذا كانت بحاجة إلى وثائق مزورة؟"

كان يساورني الاعتقاد بأنني في حلم. كان هذا غالبا ما يحدث لي في هذه الفترة، خصوصا حينما يحط الليل. أهو التعب؟ أو هذا

الإحساس الغريب بأنك تحيا حاليا ما مررت به سابقا والذي يداهمك هو الآخر بسبب الأرق؟ إذن، تختلط كل الأشياء في روحك، الماضي، والحاضر، والمستقبل، عن طريق ظاهرة الطباعة الفوقية. وحتى اليوم، يبدو لي زقاق كوفيي معزولا عن باريس، زقاق يقع في مدينة مجهولة من مدن الضواحي، وبالكاد أصدق أن هذا الشخص الذي يسير إلى جانبي كان يوجد فعلا. يتناهى إلي صوتي من بعيد: "لكن لماذا كانت بحاجة إلى وثائق مزورة؟"

"ومع ذلك فإنها تُدعى داني؟" سألت أغاموري بنبرة تبدو ظاهريا طليقة، ذلك أنني كنت أخشى كثيرا مما سيكشفه لي.

أخبرني بنبرة جافة: "نعم، أظن... على بطاقة هويتها الجديدة، لا أعلم. ليس لهذا أية أهمية... على البطاقة التي سلمتها لها في الحي الجامعي، كانت تحمل اسم زوجتي... ميشيل أغاموري."

طرحت عليه سؤالا تحسرت فور التلفظ به:

"وزوجتك، هل هي على علم بذلك؟

"لا."

غدا كما كان منذ لحظات، كما يبدو لي حتى اليوم في ذكرى محددة عنه إلى حد ما: شخصا قلقا، دائما على حذر.

"سيبقى الأمر سرا بيننا، أليس كذلك؟"

أخبرته: "أتعلم، منذ أن كنت طفلا، تعلمت أن أبقى صامتا."

فاجأتني أنا الآخر الطريقة الرسمية التي نطقت بها هذه العبارة.

أخبرني بسرعة كبيرة: "لقد ارتكبتْ شيئا في غاية الخطورة وهي معرضة للمحاسبة. لهذا السبب أرادت أوراقا جديدة."

"شيء في غاية الخطورة؟"

"بوسعك أن تسألها عن ذلك. المشكل هو أنك إذا سألتها، فستعلم بأنني مصدر ذلك..."

انفتحت بوابة تفضي إلى سوق الخمور، وتوقف أغاموري في المقدمة.

"يمكننا أن نلتف على الطريق من هنا. أعرف مقهى، زقاق جوسيو. لم تتعب بعد من المشي، أليس كذلك؟"

اجتزت البوابة في أعقابه لأجد نفسي في ساحة كبيرة تحيط بها بنايات نصفها تهدم، كما تلك البنايات في السوق القديم للجلود. هنا أيضا حطت العتمة كما في الأرض اليباب حيث كنت أنتظره منذ قليل... هناك، يضيء عمود ضوئي بضوء أبيض مخازنا لا تزال قائمة والتي تحمل على جدرانها كتابات شبيهة بتلك التي لاحظت وجودها في خرابات سوق الجلود.

استدرت نحو أغاموري.

"بإذنك؟"

أخرجت من جيب سترتي مذكرتي السوداء. اليوم أقرأ من جديد الملاحظات التي دونتها ذلك المساء بخط سريع ونحن نحث الخطى نحو زقاق جوسيو:

ماري بريزار وروجي

هضبة الحسناء

الخمور الجزائرية الجيدة

مخازن لا لوار

ليبو، مارغيرون، وبلوند

باحة مياه الحياة. كهوف روزري.

سألني أغاموري: "هل تقوم بهذا غالبا؟"

بدا مستاء، كما لو كان يخشى أن كل ما يريد أن يفضي به إلي لن يحظى باهتمامي وأن لدي اهتمامات أخرى. بيد أن كل شيء كان فوق طاقتي، خلال هذا الوقت تحديدا كنت حساسا كما اليوم إزاء الأشخاص والأشياء التي توجد على شفير الاندثار. وصلنا أمام بناية حديثة بهوها مضاء والتي ترتسم على واجهتها الكتابة التالية: كلية العلوم.

اجتزنا بهو هذه الكلية وبعد ذلك، من جديد، أرض يباب حتى زقاق جوسيو.

أشار أغاموري: "هناك."

ثم أشار، في الجهة الأخرى من الزقاق، إلى مقهى يقع بعيدا عن مسرح لوتيس. كان أناس يتجمعون على الرصيف، في انتظار بداية العرض.

جلسنا في زاوية، بالقرب من المشرب. أمامنا، في الجهة الأخرى من الصالة، ثمة مجموعة من الموائد حيث يتناول بعض الأشخاص طعامهم.

حان الآن دوري أن لأبادره بالحديث حتى أجعله يسترسل في كلامه. وإلا فسيتحسر لكونه قال أكثر من اللازم.

"أشرت قبل قليل إلى شيء في غاية الخطورة بشأن داني... سأكون ممنونا لو تعطيني المزيد من التفاصيل."

تردد قليلا.

"هي معرضة لمشاكل كبيرة جدا ذات طبيعة قضائية..."

كان يبحث عن الكلمات المناسبة، كلمات ستكون محددة، حرفية، كلمات محامي أو رجل أمن.

"حاليا توجد إلى حد ما في أمان... لكن ثمة خطر بأن يتم التنبه إلى أنها متورطة في قضية قذرة..."

"ماذا تقصد بـ "قضية قذرة؟"

"عليك أن تسألها عن ذلك."

ران صمت بيننا، إن لم يكن شعور بالضيق. تناهى إلى سمعي جرس المسرح، بالجوار، معلنا بداية المسرحية. يا إلهي، كم أحببت ذلك المساء أن أكون في القاعة رفقتها ضمن المشاهدين وألا تكون داني أبدا متورطة في "قضية قذرة"... لم أفهم تحفظات أغاموري لشرح طبيعة هذه "القصة القذرة."

قلتُ: "أظنك على علاقة حميمية بداني..." حدق في بنظر قلق.

"لقد شاهدتك رفقتها، ذات ليلة، في وقت متأخر، في مقهى "66"..."

لم يبدِ معرفة بالمكان. أشرت إلى أن الأمر يتعلق بمقهى، في الجانب العلوي من شارع سانت ميشيل، بالقرب من محطة لوكسمبورغ.

"من الممكن... كنا نقصد ذلك المقهى حينما كنا لا نزال نقيم في الحي الجامعي..."

ابتسم لي كما لو كان يحاول من الآن فصاعدا أن يتخذ الحديث مجرى عاديا، لكنني كنت أتمنى لو يتطرق إلى صلب الموضوع. على أي حال، فهو الذي طلب لقائي. كنت أحمل رسالته في الظرف الذي يحمل عنواني على 28 زقاق لود. وضعتها بين صفحات مذكرتي السوداء. على أي، حافظت عليها وقرأتها مجددا اليوم قبل أن أنقل كلماتها، بكل إخلاص، على إحدى الأوراق من هذا النوع الخاص بالرسائل "كلير فونتين" الذي كنت أستعمله منذ أيام قليلة للكتابة.

"ولكن أ لا تظن بأنه يجب تحذير زوجتك بأن داني تحمل بطاقة تعريف باسمها...؟"

شعرت بأنه "يتقصف،" ولم يسبق لي أن تصورت هذه الكلمة العامية بكل هذه الدقة. الآن حينما أفكر في الموضوع تبدو لي خارطة من الشقوق تخترق إهابه. كان يبدو قلقا بحيث أردت طمأنته بقوة. لا، كل هذا يبدو لي دون جدوى.

"إذا تمكنت من استعادة هذه البطاقة التي أعطيتها لها باسم زوجتي، فسأكون ممنونا لك..."

كان يدرك تماما بأنني لم أكن شخصا سيئا. على أي، حينما ذهبت لزيارته خلال مناسبتين أو ثلاثة، خلال المساء بعد انتهائه من محاضراته بكلية سونسيي، كنا نخوض في قضايا الأدب. كانت لديه معرفة عميقة إلى حد ما ببودلير بحيث طلب مني أن أتلو عليه ملاحظاتي بشأن جان دوفال.

أخبرني: "على أي، فالآخرون أعدوا لها وثائق مزورة، وهي لم تعد بحاجة إلى هذه البطاقة... ولكن لا تخبرها على وجه الخصوص بأنني تحدثت معك في الموضوع..."

كان يبدو قلقا للغاية بحيث أنني قررت أن أقدم له هذه الخدمة بالرغم من أنني كنت أجهل كيفية القيام بذلك. كنت أشعر ببعض الحرج في تفتيش الحقيبة اليدوية لداني. في البداية، حينما كنت أرافقها إلى مركز البريد، كانت تسلم الموظف وراء الشباك بطاقة هوية. هل كانت باسم ميشيل أغاموري؟ هل كان الاسم الذي يظهر على ظهر الوثائق المزورة التي منحتها إياها المجموعة الصغيرة لفندق أونيك؟ وأي واحد منهم على وجه الخصوص قدم لها هذه الخدمة؟ هل هو بول

شاستانيي، أم دوفيلتز، أم جيرار مارسيانو؟ أنا، أرجح "جورج" الرجل ذو الوجه الضامر والسيولة الجليدية، الأكبر سنا قياسا بالآخرين والذي يثير فيهم نوعا من الفزع، الشخص الذي أخبرني بول شاستانيي بشأنه، حينما طرحت عليه سؤالا بشأنه: "أتعلم، إنه ليس تماما طفل المذبح..."

"يبدو أنك تمتلك شقة مع زوجتك بالقرب من منزل الإذاعة..."

ظننت أنه سيجد هذه الملاحظة غير لائقة. ولكنه على العكس. ابتسم لي، وقد أحسست بأنه شعر بالراحة لأنني تطرقت إلى هذا الموضوع معه.

"بالطبع... شقة صغيرة جدا... أحب أن أدعوك هناك رفقة زوجتي... لكن بشرط أن تنسى بأنني أتردد على داني، وعلى فندق أونيك والآخرين، حينما نكون هناك..."

كان قد نطق بـ "هناك" كما لو كان ذلك اسم بلد بعيد محايد حيث يكون المرء بمنأى عن الخطر.

أخبرته: "كل ما على المرء أن يقوم به أساسا هو قطع نهر السين لكي يتسنى له نسيان كل ما خلفه وراءه."

"هل تعتقد ذلك حقا؟"

لاحظت بأنه كان يبحث على ما يطمئن جانبه. أظن أنه يشعر بالثقة إزائي... فكلما كنا وجها لوجه أو كنا نسير من ساحة لا مونج إلى مونبارناس، كنا نتحدث في قضايا الأدب. لم يكن يتسنى له القيام بنفس الأشياء مع الآخرين، أولائك المرتبطين بفندق أونيك. لم أكن أتخيل أن يهتم كل من بول شاستانيي أو دوفيلتز أو "جورج" بمصير جان دوفال. ربما جيرار مارسيانو؟ كان قد أسر لي مرة بأنه يود التعاطي

إلى الرسم وبأنه يعرف "حانة للفنانين" بزقاق دولامبر: لو روز بود. بعد مرور سنوات على ذلك، في الملف الذي سلمه لي الشخص المدعو لانغلي، كان هناك ملف للأمن بخصوص مارسيانو مع صورتين من السجل العدلي، واحدة من الأمام والأخرى جانبية، وقد تمت الإشارة إلى لو روز بود من بين الأماكن التي كان يتردد عليها.

هز رأسه نحوي.

"للأسف، أظن أنه لا يكفي قطع نهر السين..."

كانت تعلو محياه من جديد تلك الابتسامة الخجولة التي تكاد تخبو من لحظة إلى أخرى.

"داني لم تكن الوحيدة... أنا الآخر، جون، وضعت نفسي في ورطة..."

كانت هذه هي المرة الأولى التي يستعمل فيها اسمي الشخصي، وقد تأثرت لذلك. بقيت صامتا حتى أترك له الفرصة لكي يسترسل في الحديث. كنت أخشى أن كلمة واحدة صادرة من جهتي يمكن أن تقطع حبل الثقة الدقيق.

"أخشى العودة إلى المغرب... سيكون الأمر كذلك في باريس... ما أن تضع أصبعك في دوامة فسيكون من الصعب سحب يدك..."

عن أية دوامة يتحدث؟ بصوت لطيف إلى أبعد حد، إلى حدود الهمس، طرحت عليه مع ذلك سؤالا، بغض النظر عما يكمن في ذلك من مخاطر:

"حينما كنت تقيم في الحي الجامعي، ألم تكن تشعر بالأمان؟"

رفع حاجبيه إلى الأعلى بشكل جدي، على النحو الذي يتخذه

خلال محاضراته بجامعة سونسيي حتى يطمئن هو الآخر بأنه لم يكن سوى طالب.

"أتعلم جون، كان هناك جو غريب، هناك، في الحي، في جناح المغرب... كانت هناك غالبا دوريات لرجال الأمن... كانت تتم مراقبة المقيمين من وجهة نظر سياسية. كان بعض الطلبة معارضين للحكومة المغربية... وكان المغرب يطلب من فرنسا مراقبتهم... هذا كل ما في الأمر..."

بدا مرتاحا، إن لم يكن منبهرا، لكونه أسر لي بهذا الكلام. هذا كل ما في الأمر. بعد هذه المقدمة، غدا التطرق إلى جوهر الموضوع دون ريب أكثر سهولة.

"على العموم، إذا شئت، فقد كانت وضعيتي حرجة إلى حد ما... كنت عالقا بين الاثنين... كنت أتردد في نفس الآن على أشخاص ينتمون إلى الجانبين... يمكن القول بأنني كنت أقوم بعمل مزدوج... لكن الأمر كان أكثر تعقيدا من ذلك... في الأساس، فنحن لا نقوم أبدا بعمل مزدوج..."

لا بد أن هناك سببا ما دام يسر لي بذلك بكل صرامة... بشكل غريب، بقيت هذه العبارة عالقة في ذهني. خلال السنوات التالية، حينما كنت وحيدا في الزقاق، خلال الليل في أفضل الأحوال وفي أحياء خاصة من الشرق - كان الصوت البعيد لأغاموري يطرق سمعي وهو يخبرني: "في الأساس فنحن لا نقوم أبدا بعمل مزدوج."

"لم أكن آخذ ما يكفي من الحذر... انسقت في دوامة ما... كما تعلم، جون، بعض الأشخاص الذين يترددون على فندق أونيك تربطهم علاقات وثيقة بالمغرب..."

مع مرور الوقت، أخذ الصخب يشتد وتزايد عدد الأشخاص الذين يتناولون طعامهم أمامنا. كان أغاموري يتحدث بصوت خفيض، ولم أكن أسمع كل ما كان يقوله. نعم، كان فندق أونيك نقطة وقوع بعض المغاربة والفرنسيين الذين "كانوا على علاقة" بهم... لكن أي نوع من "العلاقات"؟ كان ذلك الشخص "جورج" صاحب الوجه الضامر والذي أخبرني بول شاستانيي بأنه ليس "طفل المذبح" يملك هو الآخر فندقا بالمغرب... كما أن بول شاستانيي كان قد أقام في الدار البيضاء لمدة طويلة... ومارسيانو وُلد هناك... أما هو، أغاموري، فقد وجد نفسه عالقا بين هؤلاء الأشخاص بسبب صديق مغربي كان يتردد على الحي الجامعي، لكنه في الواقع كان يشتغل في السفارة مستشارا للقضايا "الأمنية"...

كان يتحدث بسرعة متزايدة، وكنت أجد عنتا في تتبع هذا الفيض من التفاصيل. ربما كان يريد التخلص من عبء أو من سر بهظه لمدة طويلة لوحده. أخبرني فجأة:

"معذرة... لا شك أن كل هذا يبدو لك غير متناسق..."

لكن لا. اعتدت على الاستماع إلى الأشخاص. وحتى حينما لا أفهم كل ما يقولونه، فإنني كنت أحافظ على حدقتي عيني واسعتين وكنت أحدق فيهم بنظر ثاقب، مما يمنحهم الوهم بأنهم أمام مستمع ينتبه لهم بشكل خاص. كنت عادة أفكر في شيء آخر، بينما لا يفارقهم نظري أبدا، وكنت أمنحهم الانطباع بأنني في الواقع أتشرب كلماتهم، كلمة كلمة. بالنسبة لأغاموري، كان الأمر مختلفا. مادام أنه يشكل جزءا من محيط داني، كنت أحاول الفهم. وكنت آمل أن يتفوه ببعض الكلمات بخصوص "القصة القذرة،" التي، كما قال لي، هي "متورطة" فيها.

"أنت محظوظ... فأنت لست مرغما أن تضع كما نحن اليد في الزفت... فلا تزال تحافظ على يديك نظيفتين..."

كان يوجه لي في هذه الكلمات الأخيرة عتابا ما. ماذا كان يقصد بـ "نحن"؟ هل يقصد نفسه وداني؟ نظرت إلى يديه. بدت رقيقة، أكثر رقة من يدي. وكانت بيضاء. أما يدي داني فقد أثارت انتباهي هي الأخرى بتميزها. كانت مفاصلها دقيقة جدا.

"فقط يجب الاحتراس من رفاق السوء... عبثا كنا نظن بأننا محصنين، هناك دائما عطب في الدرع الواقي... دائما... عليك أن تحتاط، جون..."

يمكن القول بأنه كان يشعر بالغيرة مني لأنني لا أزال أحافظ على "يدي نظيفتين" وأنه كان ينتظر اللحظة التي سألطخ فيها يدي. صار صوته بعيدا أكثر فأكثر. وخلال اللحظة التي أكتب فيها هذه الكلمات، كان هذا الصوت خافتا كتلك الأصوات التي تصلك، في المذياع، في وقت متأخر من الليل، مشوشة بسبب الطفيليات. أظن أن هذا الإحساس ينتابني الآن. يبدو لي أنه في تلك الفترة كنت أشاهدهم جميعا كما لو كانوا وراء الواجهة الزجاجية لحوض سمك، وأن هذه الواجهة تعزلنا، هم وأنا. هكذا، في الأحلام، ترى الآخرين يحيون لا يقينيات الحاضر، لكن أنتَ، أنت تدرك مجريات المستقبل. هكذا تحاول إقناع السيدة باري بألا تدخل إلى فرنسا حتى تتجنب المقصلة. ذلك المساء، قلت لنفسي بأنني سأستقل قطار الأنفاق حتى محطة جوسيو. بينما تتوالى المحطات، سأعود بمجرى الزمن إلى الوراء. سأجد أغاموري جالسا إلى نفس الطاولة بالقرب من المشرب، في معطفه البني الفاتح، بينما يضع الملف الأسود على الطاولة، هذا الملف الذي كنت أتساءل

إذا ما كان يحتوي على محاضرات جامعة سونسيي التي ستسمح له باجتياز الاختبارات التمهيدية لامتحان الإجازة. ما كنت لأفاجأ لو أنه أخرج مجموعة من الأوراق البنكية، مسدسا أو ملفات الاستعلامات التي عليه أن يسلمها لصديقه المغربي الذي تعرف عليه بالحي الجامعي والذي حدثني بشأنه والذي يشتغل "مستشارا" في السفارة... سأرافقه حتى محطة جوسيو ومن هناك سننطلق في رحلة معاكسة لمجرى الزمن. عند نهاية الخط، سنتوقف عند كنيسة أوتوي. مساء هادئ، مكان هادئ، يكاد يكون مكانا ريفيا. سأخبره: "هاك إذن. أنت في باريس اليوم. لا يوجد ما تخشى منه. كل أولئك الذين كانوا يضمرون لك السوء قضوا منذ مدة. أنت في منأى عن مرماهم. ليس هناك مخدع هاتفي. لكي تتصل بي، في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل، استعمل هذا الشيء." وهكذا أسلمه هاتفا خلويا.

"نعم، احترس، جون... حينما كنت في فندق أونيك، شاهدتك مرات عديدة تتحدث إلى بول شاستانيي... سيزج بك أنت الآخر في قصة قذرة..."

كانت الساعة تشير إلى وقت متأخر وكان الناس يغادرون مسرح لوتيس. ولم يتبق أي واحد في طاولات الطعام أمامنا. بدا أغاموري أكثر قلقا منذ بداية حوارنا. كنت أشعر بأنه كان يخشى من مغادرة المكان وبأنه سيبقى في هذا المقهى حتى ساعة الإغلاق.

سألته مرة أخرى:

"ماذا عن داني؟ هل تظن فعلا بأن هذه "القصة القذرة" التي تحدثت عنها..."

لم يترك لي الوقت لإتمام عبارتي. أخبرني، بنبرة جافة:

"ستدفع ثمنا غاليا جدا... حتى بأوراق مزيفة، قد يضبطونها. لقد ارتكبتُ خطأ حينما اصطحبتها إلى فندق أونيك وقدمتها إلى الآخرين... لكن ذلك كان فقط لكي تأخذ قسطا من الراحة... كان عليها أن تغادر باريس حالا..."

كان قد نسي وجودي. لا شك أنه كان يعيد العبارات ذاتها حينما يكون بمفرده، في الليل، في هذه الساعة. وبعد ذلك، حرك رأسه كما لو ليخرج من قبضة حلم مزعج.

"لقد سبق أن حدثتك عن بول شاستانيي... لكن الشخص الأكثر خطورة يبقى مع ذلك هو "جورج"... إنه هو الذي منح داني الوثائق المزيفة. لديه دعم كبير في المغرب وعلاقات مع هذا الصديق في السفارة... يريدون أن أقدم لهم خدمة..."

كان دون ريب على وشك أن يعترف بشيء ما، لكنه توقف في الوقت المناسب.

"لا أفهم كيف أن شخصا مثلك يتردد على هؤلاء الأشخاص... أنا لا حيلة لي في ذلك. أما أنت؟"

هززت منكبي.

أخبرته: "أتعلم، أنا لا أتردد على أي كان. معظم الناس بالنسبة لي ليسوا مهمين ما عدا ريستيف دو لا بروتون، وتريستان كوربيير، وجين دو فال، وبعض آخرين."

"إذن فأنت محظوظ..."

وكما رجل أمن يريد أن ينتزع منك اعترافا بينما يتظاهر بالتواطؤ معك قال:

"أساسا، كل هذا بسبب داني. كل هذا، أليس كذلك؟ إذا كانت

لدي أية نصيحة لك، فعليك أن تقطع علاقتك بهذه الفتاة..."

"لا أتبع النصائح أبدا."

دفعت بابتسامة إلى محياي، ابتسامة تنطق بالصراحة والصدق.

"انتبه لنفسك... داني وأنا، نحن إلى حد ما أشخاص موبوؤون... برفقتنا، فأنت معرض للإصابة بالجذام..."

على العموم، كان يريد أن يومئ إلى علاقة وثيقة بينهما، نقاط مشتركة، تواطؤ من نوع ما.

"لا تشغل بالك بي كثيرا."

حينما غادرنا المقهى، كانت الساعة تشير تقريبا إلى منتصف الليل. كان يبدو مستقيما جدا في معطفه البني الفاتح بينما يمسك الملف الأسود في يده.

"أعذرني... لقد فقدت فعلا صوابي هذا المساء... لا تعر بالا لما أخبرتك به... لا شك أن السبب في ذلك يعود إلى الامتحانات. أنام بشكل سيء جدا... علي اجتياز اختبار شفوي خلال أيام قليلة..."

كان قد استعاد كل كبريائه وطابعه الجدي كطالب.

"أنا أفضل كثيرا الاختبارات الشفوية قياسا بالاختبارات الكتابية."

تصنع الابتسام. اقترحت أن أرافقه حتى محطة قطار الأنفاق جوسيو.

"هذا فعلا أمر مُعيب... فأنا لم أفكر حتى في دعوتك للعشاء."

استحال إلى شخص آخر وقد لملم تماما أشتات ذاته المهتزة.

قطعنا الساحة بخطى هادئة. لم يكن لا يزال لدينا الوقت قبل القطار الأخير.

"ليس بالضرورة أن تعير بالا لما أخبرتك بشأن داني... ليس الأمر بهذه الخطورة... كما أننا حينما نُعز شخصا ما، فإننا نتأثر لكل ما يتعلق به ونشغل بالنا بأشياء تافهة..."

كان يتكلم بصوت واضح، بحيث كان يروز كل كلمة ينطق بها. طافت في ذهني العبارة التالية: إنه يحاول إغراق السمكة في الماء.

كان يستعد لنزول سلالم باب محطة قطار الأنفاق. لم أستطع أن أمتنع عن سؤاله:

"هل ستقضي الليلة في فندق أونيك؟"

لم يكن يتوقع هذا السؤال. تردد قليلا:

"لا أظن ذلك... لقد استعدت مؤخرا غرفتي في الحي الجامعي... مع ذلك فالمكان أكثر جمالا..."

ضغط على يدي. كان على عجلة ليغادر ذلك أنه كان ينزل السلالم بسرعة كبيرة. قبل أن يشرع في السير على طول الممر، استدار كما لو كان يخشى أن أمد رجلي وأوقعه أرضا. وقد شعرت بالرغبة للقيام بذلك. كنت أتصور بأننا كنا جالسين جنبا إلى جنب على إحدى المقاعد الحمراء الرمانية للمنصة في انتظار قطار استغرق وقتا للوصول إلى المحطة، بسبب الوقت المتأخر. لم يخبرني الحقيقة، فهو لن يذهب إلى الحي الجامعي، وإلا لاستقل خط بورت دي تالي. سيعود إلى فندق أونيك. سيهبط في محطة دوروك. مرة أخرى، كنت أحاول أن أفهم في أية "قصة قذرة" كانت داني متورطة. هناك، على ذلك المقعد، كان يتظاهر بأنه لا يعرفني. صعد المقطورة، وبينما كانت الأبواب تغلق دونه والجبين على زجاج النافذة، كان يحدق بي بنظر باهت.

ذلك المساء، عدت إلى غرفتي بزقاق لود سيرا على الأقدام. وفر لي هذا السير الطويل إمكانية الغوص في لجة أفكاري. حينما كانت تلحق بي داني هناك، كان ذلك غالبا على الساعة الواحدة صباحا. أحيانا تخبرني: "لقد ذهبتُ لزيارة أخي" أو "كنت عند صديقتي دو رانيلاغ،" دون أن تسعفني بالمزيد من التفاصيل. حسب ما ظننت أنني أدركته حينها، فهذا الأخ -كانت تلقبه بـ "بيير" بين الحين والحين - لا يقيم في باريس لكنه كان يأتي إليها بانتظام. و"الصديقة دو رانيلاغ" كانت تلقب كذلك لأن مسكنها يقع في محيط حدائق دو رانيلاغ. إذا لم تفكر أبدا في أن ترتب لي لقاء مع أخيها، فإنها لم تلبث أن أخبرتني بأنها ستعرفني في يوم من الأيام على "صديقتها دو رانيلاغ." مرت الأيام دون أن تفي بوعدها.

لعل أغاموري كان يقول الحقيقة وخلال سيري حتى زقاق لود، تساءلت إذا ما كان قد وصل إلى غرفته بالحي الجامعي؟ لكن داني، لا زال صوت أغاموري يتناهى إلي، كما صدى يتضاءل شيئا فشيئا: "لقد ارتكبتْ شيئا في غاية الخطورة... قد تتعرض لمتاعب كبيرة..."وكنت أخشى أن أنتظرها عبثا هذه الليلة. على أي حال، كنت أنتظرها غالبا خلال الليل، دون أن أكون على يقين أبدا بقدومها. أو أنها كانت تقوم بذلك دون سابق تدبير، حوالي الرابعة صباحا. غفوت غير أن صوت المفتاح الذي يدور في القفل جعلني أستيقظ في هلع. تترامى

المساءات طويلة حينما أبقى في الحي في انتظار قدومها، غير أن ذلك كان يبدو لي أمرا عاديا. كنت أشعر بالشفقة إزاء أولئك الأشخاص الذين عليهم أن يدونوا العديد من المواعيد في مذكرتاهم الشخصية، بعضها يكون شهران قبل الموعد المحدد. يكون كل شيء محددا بالنسبة لهم كما لو أنهم لن ينتظروا أي أحد. لن يدركوا أبدا أن الزمن يُخفق، يتمدد، ثم يصير راكدا، وشيئا فشيئا يمنحك ذلك الإحساس بالعطل واللانهائي الذي يبحث عنه الأشخاص الآخرون في المخدرات، لكنني كنت أجده ببساطة في الانتظار. أساسا، كنت إلى حد ما على يقين بأنكِ ستأتين، آجلا أم عاجلا. حوالي الساعة الثامنة مساء، يتناهى إلي صوت جارتي وهي تغلق الباب، ووقع خطاها يتلاشى شيئا فشيئا على السلالم. كانت تسكن في الطابق العلوي. على بابها، ثمة قطعة بيضاء من الورق المقوى حيث كتب بالحبر الأحمر اسمها الشخصي: كيم. كانت تقريبا في عمرنا. كانت تمثل في مسرحية وقد سبق لها أن أخبرتني بأنها كانت دوما تخشى أن تصل بعد فوات الأوان، بعد رفع الستار. أهدتنا بطاقات، أنا وداني، وذهبنا إلى مسرح الشوارع الذي لم يعد قائما اليوم. كانت سيارة أجرة تنتظرها كل مساء خلال أيام الأسبوع، باستثناء الاثنين، على الساعة الثامنة تحديدا، ويوم الأحد على الساعة الثانية زوالا، أمام المبنى الذي يحمل رقم 28 زقاق لود. من خلال النافذة، كنت أرقبها وهي تصعد سيارة الأجرة، ترتدي سترة مبطنة من الفرو ثم توصد الباب. حدث ذلك خلال شهر كانون الثاني، كان الجو باردا جدا، كما أن طبقة من الثلج غطت الزقاق، وخلال أيام قليلة كنا خارج باريس، في قرية جبلية. لم أعد أذكر عنوان المسرحية أو حبكتها. تصعد كيم إلى خشبة المسرح بعد الفاصل.

دونت في مذكرتي السوداء واحدة من العبارات التي تمثل جوهر دورها في المسرحية، والزمن تحديدا: التاسعة مساء وخمسة وأربعون دقيقة حيث أدلت بهذا الجواب. لو سألني سائل عن السر في ذلك لعجزت عن الإجابة إجابة محددة. لكنني اليوم أدرك الأمور بطريقة أفضل: كنت بحاجة إلى نقاط ارتكاز، أسماء محطات قطار الأنفاق، أرقام المباني، سلالات الكلاب، كما لو كنت أخشى أنه بين لحظة وأخرى سيختفي الأشخاص والأشياء ويتوارون عن الأنظار وبالتالي علي الحفاظ ولو على دليل واحد على وجودهم.

كل مساء، كنت أعلم أنها في حوالي الساعة التاسعة وخمسة وأربعين دقيقة، ستدلي على المنصة أمام الجمهور بالعبارة التالية:

"لم يكن وجودنا ليشكل فرقا في حياتها..."

وأن أقوم بكتابة هذه العبارة ذلك اليوم، بعد مرور نصف قرن، أو حتى بعد مرور قرن، لم أعد أعرف عد السنوات، أشعر للحظة بهذا الإحساس بالفراغ الذي ينتابني. سيارة الأجرة التي تنتظر على الساعة الثامنة مساء، الخوف من الوصول بعد رفع الستار، السترة المبطنة بالفرو بسبب الشتاء والثلج، حركات كانت يومية لكنها انمحت، مسرحية لن يشاهدها أبدا أي أحد، ضحك وتصفيقات غابت، مسرح هو الآخر تم تدميره... لم يكن وجودنا ليشكل فرقا في حياتها... يوم الاثنين يوم عطلة، ثمة ضوء ينبعث من نافذتها، وكان هذا يبعث الطمأنينة في صدري. خلال المساءات الأخرى، كنت أبقى وحيدا في هذا المبنى الصغير. وكان أحيانا ينتابني الشعور بأنني أفقد الذاكرة وبأنني لا أفهم جيدا ما أقوم به هناك. حتى عودة داني.

كنت أخطو نحوها على طول هذا الحي الذي شهد سنوات طفولتي، حي كنت عادة أتجنبه لما يثيره لدي من أشجان، والذي يبدو اليوم غريبا وعاديا تماما بالنسبة لي ما دام قد تغير شكله. تجاوزنا زْوايال سانت جيرمان ووصلنا أمام مدخل فندق تاران. لمحت ذلك الكاتب الذي أقدره والذي تحمل إحدى قصائده عنوان "داني" وهو يغادر الفندق. في الخلف، انطلق صوت رجولي ينادي: "جاك!..." واستدار. ألقى علي نظرة ملؤها الدهشة، ذلك أنه اعتقد بأنني أنا من ينادي عليه باسمه الشخصي. اجتاحتني الرغبة للانقضاض على هذه الفرصة، أن أسير نحوه وأن أصافحه. كنت سأسأله لماذا تحمل قصيدته عنوان "داني" وإذا ما كان هو الآخر قد عرف في الماضي فتاة تحمل هذا الاسم. لكنني لم أجرؤ على ذلك. لحق به شخص، وهو يناديه بـ "جاك" مرة أخرى، وهكذا فإنه استدرك خطأه. أظن أنه ألقى نحوي بابتسامة. كان الرجلان، أمامنا، يسيران في الشارع نحو نهر السين.

أخبرتني داني: "عليك أن تذهب وتحييه." ثم عرضت أن تتكلم معه نيابة عني، غير أنني أمسكت بها. فقد فات الأوان، ذلك أنهما تواريا عن الأنظار وهما يسيران على اليسار في شارع غاسباي. عدنا على أعقابنا. من جديد، كنا أمام مدخل فندق تاران.

سألت داني: "لماذا لا تكتب له رسالة تطلب فيها موعدا؟"

ولكن لا. في الفرصة القادمة حينما ألتقي به، سأتجاوز خجلي وترددي وسأصافحه. لسوء الحظ، أنني لم ألتق به أبدا وبعد مرور عشرات السنوات، علمت عن طريق أحد أصدقائه، بأنك إذا ما صافحته، فإنه ينظر إليك بكسل ويقول: "دائما خمسة أصابع؟" بالطبع، أحيانا تكون الحياة رتيبة مضجرة، كما اليوم وأنا أكتب هذه الصفحات لأعثر على ممرات هروب وأفر عبر فجوات الزمن. كنا نفترش نحن الاثنين مقعدا من الأرض المكورة ما بين محطة سيارات الأجرة وفندق تاران. كان علي أن أعلم أنه في السنة القادمة أن جريمة ارتكبت هناك، على ذلك الرصيف، وراءنا. لقد تم اقتياد رجل سياسي مغربي في سيارة - سيارة للأمن كما زعم حينها- لكن الأمر كان يتعلق بعملية اختطاف، وبعد ذلك بجريمة. كما أن اسم "جورج" الذي كان ينتصب غالبا في بهو فندق أونيك ورد في الصحف كأحد مرتكبي هذه الجريمة، وكنت أتوقع كل مرة أن أصادف أسماء بول شاستانيي، ودوفيلتز، وجيرار مارسيانو وأغاموري، الذي كنت أرغب بشدة في الحصول على رأيه بشأن هذا الموضوع. لكن ذلك سبب لي الجزع وكنت أذكر الجملة التي قالها لي، خلال المساء الذي كنا فيه في هذا المقهى بحذاء مسرح لوتيس: "نحن موبوئين. معنا قد تصاب بالجذام..." ذات زوال، دخلت إلى كشك للهاتف، على مسافة بعيدة جهة الشرق، بالقرب من أوتوي. وقد دفعت هذه المسافة بالطمأنينة قليلا إلى صدري. بدا لي حينها أن فندق أونيك يوجد في مدينة أخرى. ضغطت على رقم جناح المغرب الذي كان أغاموري قد أعطاه لي خلال لقائنا الأول مع داني والذي دونته في مذكرتي السوداء: بور 58.17. كانت هناك فرص ضئيلة لكي يبقى مقيما بغرفة هناك. تناهى إلي صوتي وأنا أقول بنبرة باهتة:

"هل يمكنني الحديث إلى الغالي أغاموري؟"

ران صمت للحظة. كنت على وشك أن أغلق الخط. غير أنني شعرت بدوار، كشخص يمكنه أن يحتمي لكن تنتابه الرغبة فجأة في الفرار من خطر مداهم.

"من المتحدث؟"

طرح علي الرجل السؤال بنبرة جافة كما لو أنه مفتش من مفتشي دائرة الأمن.

"صديق."

"سألتك عن اسمك، سيدي."

كنت على وشك أن استسلم للدوار: أن أعطيه اسمي، اسمي الشخصي، عنواني. لكنني تداركت في الوقت المناسب.

"تريستان كوربيير."

صمت. لا شك أنه دون الاسم.

"ولماذا تريد الحديث إلى الغالي أغاموري؟"

"لأنني أرغب في ذلك."

اتخذ صوتي أنا الآخر نبرة جافة، أكثر جفافا من صوته.

"لم يعد الغالي أغاموري يقيم في جناح المغرب. هل تسمعني، سيدي؟ هل تسمعني؟"

بدوري، بقيت صامتا. وكنت أشعر عند نهاية الخط بارتباك مخاطبي، ولما لا قلقه بسبب صمتي. أطبقت السماعة. لاحقا، كنت غالبا ما أمر على الرصيف حيث كان يتواجد فندق روايال سانت جيرمان وفندق تاران، لكنهما لم يعودا موجودين الآن، كما لو أراد المرء تغيير ديكور الجريمة حتى يتم نسيانها. في الأسبوع الماضي، لاحظت

أنهم انتزعوا المقعد أمام محطة سيارات الأجرة حيث كنا قد جلسنا ذلك المساء، أنا وداني.

"لم يكن تصرفنا حكيما... قبل قليل، كان بإمكاني أن أتحدث إليه وأن أخبره بأنني أدعى داني... كما في قصيدته..."

انفجرتُ ضحكا. بالطبع، هذا الرجل، حسب ما قرأته له وحسب مظهره السمح، لن يتردد في قضاء بعض اللحظات معنا. كنت أحيانا أتلو في الزقاق، حينما أسير وحيدا، بعض الأبيات التي كتبها:

إذا ما متُّ فلتذهب أرملتي

إلى جافيل بالقرب من سيترون.

سانت كريستوف دو جافيل. عدنا تحديدا من ذلك الحي حيث رافقت داني، كما العادة، لتستلم بريدها. كنت أرغب خلال سيرنا أن أخبرها بكل ما قاله لي أغاموري، تلك "القصة القذرة،" التي أومأ إليها والتي تعنيها، لكنني كنت أبحث عن الكلمات المناسبة، أو بالأحرى كنت أبحث عن النبرة التي يجب اتخاذها، نبرة خفيفة، تقريبا هزلية حتى لا تفزع... كنت أخشى أن تثور ضدي -كما يقال في مكان ما، لا شك أنه فندق أونيك - وأن ينشب نزاع بيننا.

كنا على استعداد للمرور بزقاق غين والسير على طوله حتى مونبارناس. لكن عند بداية هذا الزقاق الكبير الحزين والمستقيم والذي يغرق في الأفق - لم يجلله بعد سور مونبارناس بعارضته السوداء - انتابتني الرغبة في العودة. سألتها إذا ما كانت تعتزم فعلا الدخول إلى فندق أونيك.

أخبرتني: "علي لقاء أغاموري حتى يعطيني بعض الأوراق."

كانت اللحظة المناسبة لرفع اللبس. ترددتُ قليلا. وبعد ذلك:

"أي نوع من الأوراق؟ هل هي أوراق باسم ميشيل أغاموري؟"

تطلعت إلي بينما كان الذهول يعلو محياها. لم تحرك ساكنا أو تختلج بحركة على الرصيف، بمحاذاة ما يمثل الآن مدخل مونوبري والذي كان حينها حديقة مهجورة تلجأ إليها العشرات ثم العشرات من القطط الضالة.

"هل هو الذي أخبرك بذلك؟"

"نعم."

تصلب وجهها وخطر ببالي أغاموري. لو كان حاضرا في تلك اللحظة، لكانت عنيفة نحوه. بعد ذلك هزت كتفيها، وبنبرة لا مبالية، قالت:

"يبدو الأمر غريبا إلى حد ما، لكن ذلك عادي تماما... لقد أعارتني ميشيل بطاقة الطالب التي بحوزتها... لقد فقدت كل أوراقي وعلي أن أقوم بالعديد من الإجراءات المعقدة للحصول على عقد الازدياد... لقد ولدت في الدار البيضاء..."

هل كان ذلك محض صدفة؟ فهي الأخرى كانت تربطها علاقة بالمغرب.

"أخبرني أيضا بأن شخصا ما حصل لك على وثائق مزورة."

قلتُ "شخصا ما" لأنني لم أكن أعرف فعلا الاسم العائلي للرجل ذي الوجه الضامر والذي يلقبه الآخرون بـ "جورج" وإذا ما كان الأمر يتعلق باسمه الشخصي، أو باسم مستعار، أو حتى باسم عائلي.

"كلا، إنها ليست أوراقا مزورة على الإطلاق... هل تقصد روشار؟ ذلك الذي يرابط غالبا في بهو الفندق؟"

"أقصد الشخص الذي يدعى "جورج"..."

أخبرتني: "إنه الشخص ذاته. يذهب غالبا إلى المغرب... لديه فندق في الدار البيضاء... وما دمت أنني ولدت هناك، فقد تمكن من الحصول لي على وثائق مؤقتة... في انتظار الوثائق الحقيقية..."

لم نسر عبر زقاق غين. لعل إمكانية التوجه نحو مونبارناس وذلك بتعقب هذا الزقاق الكبير الكئيب وأن تصل إلى فندق أونيك كانت تسبب لها، هي الأخرى، خشية ما. سرنا نحو السين.

"أخبرني أغاموري بأنك كنت في حاجة إلى أوراق مزورة لأنك متورطة في قصة قذرة..."

كنا قد وصلنا إلى مكان بالقرب من مدرسة الفنون الجميلة. كان هناك مجموعة من الطلبة يتحلقون على الرصيف. كان البعض منهم يحمل آلات موسيقية، بينما كان الآخرون يرتدون ثيابا مختلفة: لفرسان، لسجناء، أو بكل بساطة كانت صدورهم عارية تحمل خطوطا من الصباغة بألوان مختلفة. كما لو كانوا هنودا.

"قال لك: "في قصة قذرة"؟"

تفرستني ثم هزت حاجبيها. تبدو أنها لم تكن تدرك أي شيء. كان الآخرون حولنا يصدرون صراخا وشرعوا في العزف على آلاتهم الموسيقية. شعرت بالحسرة لأنني تفوهت بهذه الكلمات: أوراق مزورة، قصة قذرة. ماذا لو كنا مثل هؤلاء الطلبة الطيبين الذين يعترضون طريقنا... دعونا إلى حفلهم الراقص، هذه الليلة. حفل. وجدنا عنتا في الانفكاك من مجموعتهم، وهكذا انتهت أصواتهم وموسيقاهم بالتلاشي وراءنا.

"يريد أغاموري أن يسترجع البطاقة التي كان قد أعطاها لك باسم زوجته..."

انفجرت ضحكا، ولم أكن أعرف إذا ما كان هذا الضحك طبيعيا أو مصطنعا.

"كما أنه أخبرك بأنني متورطة في قصة قذرة؟ وهل صدقت أنت كل ذلك، جون؟"

كنا نسير على طول الأرصفة، وقد شعرت بالراحة لأننا كنا هنا بدل زقاق غين الكئيب والخانق. على الأقل، هناك فضاء وكنت أتنفس بحرية. والقليل من حركة السير. الصمت. كانت أصوات أقدامنا تتناهى إلينا.

"إنه مجرد ثرثار... فهو من تورط في قصة قذرة... ألم يحدثك عن ذلك؟"

"لا."

لم يكن لكل لذلك أية قيمة. الشيء الوحيد الذي يهم، هو أننا كنا نسير على طول الأرصفة دون أن نطلب إذن أي أحد ودون أن نخلف أي شيء وراءنا. وبوسعنا أيضا أن نقطع نهر السين وأن نضل طريقنا في أحياء أخرى، ولما لا مغادرة باريس نحو مدن أخرى ونحو حياة أخرى.

"إنهم يستغلونه للإيقاع بشخص مغربي يأتي غالبا إلى باريس... ليس على اتفاق تام معهم، لكنه كان قد تورط معهم... لا يمكنه أن يرفض لهم أي شيء..." بالكاد كنت أصغي إلى ما كانت تقوله. كان يكفيني أن أسير إلى جانبها على طول الأرصفة وأن أصغي إلى نبرة صوتها. لم أكن أهتم فعلا بهؤلاء الممثلين الثانويين لفندق أونيك:

شاستانيي، ومارسيانو، ودوفيلتز، وذلك الذي يدعى "جورج" والذي يسمى "روشار،" هؤلاء الأشخاص الذين أرغم نفسي على إعادة أسمائهم حتى لا يختفون تماما من ذاكرتي.

سألت: "وأنتِ؟ هل أنت مجبرة على التردد عليهم، كل هؤلاء الأشخاص؟"

"لا، على الإطلاق... فأغاموري هو من عرفني عليهم. لا تربطني بهم أية علاقة."

"حتى بروشار؟"

قمت بجهد جهيد حتى أطرح عليها هذا السؤال. لم يكن هذا المدعو روشار والذي يسمى "جورج" يثير لدي أي اهتمام، شأنه شأن الآخرين.

"كنت قد طلبت منه فقط خدمة صغيرة... هذا كل ما في الأمر..."

"وهل تحملين دائما اسم داني في أوراقك المزورة؟"

"لا تسخر مني، جون."

أمسكت بي من ذراعي، واجتزنا جسر روايال. لا أدري لماذا كنت دوما أشعرُ بالخفة والراحة حينما كنت أقطع السين نحو الضفة اليمنى على هذا الجسر.

وسط الجسر، توقفت. قالت لي:

"سواء كانت أوراقا مزورة أو حقيقية، هل تظن أن لذلك فعلا أية أهمية بالنسبة لنا؟"

لكن لا. لا أهمية لذلك. في تلك الأثناء، كنت أنا الآخر مرتابا بشأن هويتي، لذا لماذا كان عليها أن تكون هي أكثر يقينية؟ حتى

اليوم، لا أزال أشك في صحة عقد ميلادي وسأنتظر حتى النهاية لكي أحصل على الملف الذي ضاع والذي يحمل اسمي الحقيقي، تاريخ ميلادي الحقيقي، والأسماء العائلية والشخصية لوالدي الفعليين الذين لن أتعرف عليهم أبدا.

دنت وجهها مني وهمست في أذني:

"أنت تطرح دائما الكثير من الأسئلة..."

أظن أنها أساءت الفهم. إنه اليوم، بعد مرور العشرات والعشرات من السنين، حيث أحاول تفكيك رموز آلة مورس التي كان يلقي بها إلي ذلك المراسل الغريب من أعماق الماضي. لكنني حاليا، أقنع بالعيش من يوم لآخر، دون أن أطرح الكثير من الأسئلة. كما أنه بالنسبة للأسئلة – لم تكن كثيرة كما أنها كانت مصاغة دون الكثير من الإلحاح – فهي لم تسعفني أبدا بإجابات عنها. باستثناء ذات مساء، حينما اكتفت بالإشارة. لم أعلم حتى مرور عشرين سنة على ذلك، بفضل الملف الذي سلمه لي ذلك الشخص المدعو لانغلي، في أية "قصة قذرة كانت متورطة،" حسب تعبير أغاموري. كما أنه كان قد أضاف من باب التحديد: "شيء خطير." نعم، في الحقيقة، كان الأمر خطيرا. فقد كان ذلك يتضمن وفاة رجل.

ذلك المساء، تصفحت ملف لانغلي وعثرت من جديد على إحدى صفحات من ورق رقيق جدا حيث تبرز تفاصيل أكثر دقة نقلتها في مذكرتي: "أصابت قذيفتان الضحية. إحدى القذيفتين أطلقت في تماس مع الضحية. أما الطلقة الأخرى فلم تطلق سواء بملمس مع الضحية أو من مسافة قصيرة... ثم العثور على العبوات الفارغة التي تطابق الرصاصتين اللتين أطلقتا..." لكنني لم أكن أملك

الشجاعة لنقل الباقي. سأعود إلى ذلك لاحقا، ذات يوم حينما يكون الجو جميلا وتبدد الشمس وزرقة السماء الظلال.

قطعنا حدائق تويلري. أتساءل في أي موسم تم ذلك. اليوم، بينما أخط هذه السطور، يبدو لي أننا كنا في شهر كانون الثاني. تلوح بقع ثلج في حدائق كاروسيل، وحتى على الرصيف الذي كنا نسير فوقه، في محاذاة حدائق تويلري. أمامنا، كانت أعمدة الضوء، تحت أقواس زقاق ريفولي، تغلفها هالة من الضباب. ومع ذلك، فثمة شك يراودني: قد يكون الزمن حينها بداية موسم الخريف. كانت أشجار حدائق تويلري لا تزال تحافظ على أوراقها. ستفقدها قريبا، لكن الخريف لا يثير بالنسبة لي نهاية شيء ما. أظن أن السنة تبدأ في شهر تشرين الأول. الشتاء. الخريف. تتنوع الفصول وتتداخل مع الذكرى كما لو أن هذه الأخيرة، مع تعاقب السنين، تحيا حياة خاصة، حياة نباتية، وبأنها لم تكن أبدا صورة ثابتة وميتة. نعم، تتداخل الفصول غالبا مع بعضها بعض: الربيع مع الشتاء، الصيف الهندي... حينما وصلنا أسفل الأقواس، كان المطر يتساقط، مطر قوي جدا، أو بالأحرى تلك الأمطار التي تباغتك خلال موسم الصيف.

"هل تعتقد أن لي حقا هيئة من سيتورط في قصة قذرة؟"

مدت وجهها نحوي، كما لو كانت ترغب في أن أتفحصه عن كثب، وكانت تنظر في عيني بنظرة تنم عن ذلك القدر من الصراحة...

"لو كنت قد تورطت في قصة قذرة، لأخبرتك بذلك..."

هذه العبارة، لا زال صداها يتناهى إلى سمعي خلال الليل، خلال الساعات التي يجافيني فيها النوم. كنت قد دونتها في مذكرتي السوداء. لا بد أنه كان ينتابني مع ذلك شك ما، شعور غامض جعلني أدونها

هناك، بحبر أسود على ورق أبيض. لماذا لم تخبرني بأي شيء؟ لماذا لم تخبرني ولو إيماء، ذات مساء حينما كنا نغادر محطة ليون، وخلال تلك الأثناء لم أكن أعير الكثير من الانتباه لذلك. لعلها كانت تتجنب إخافتي، لكنها لم تكن تعرفني معرفة جيدة. لم أعد أذكر أي كاتب أخلاقي كنت أقرأه خلال فترة زقاق لود والذي يؤكد بأنه يجب دائما التعامل مع الأشخاص الذين نحبهم كما هم، وخصوصا ألا نطلب منهم استفسارات.

أخبرتني: "هل تعلم، سأقطع عما قريب علاقتي بهؤلاء الأنذال من فندق أونيك."

كانت عادة تراعي الكياسة في ما تقول، وحتى في أسلوبها، لكنها كانت بين الفينة والفينة تلجأ لكلمات عامية كان بعضها غريبا عني وكنت أدونها في مذكرتي السوداء. عثرت أيضا، على إحدى صفحات مذكرتي السوداء، حيث كتبت بين هلالين: "أنذال فندق أونيك،" وكنت أتساءل إذا لم يخطر ببالي حينها أن أستعملها عنوانا لرواية.

أخبرتها: "أنت على حق. يمكنك أن تعتمدي دائما على أولائك الذين تتوصلين برسائلهم."

كانت هذه الكلمات تضمر سخرية تحسرت عليها فورا. لكن، على أي حال، لقد كانت هي التي بادرت وهي تنطق بنبرة ساخرة "أنذال فندق أونيك."

"هذه الرسائل هي بالدرجة الأولى من أخي..."

قالت ذلك بسرعة كبيرة، بصوت أجش أسمعه للمرة الأولى منذ تعارفنا، وكان هناك قدر كبير من الصراحة في هذا الاعتراف بحيث إنني

شعرت بالندم لأنني ارتبت إلى حدود تلك اللحظة في وجود أخ كانت ترفض أن تقدمه لي.

الرسائل في مركز البريد. في ملف الشخص الذي يدعى لانغلي، ثمة صفحة من ورق أبيض متسخ تشبه ملف الحالة المدنية. ذلك المساء، تصفحته من جديد وأنا على أمل أن تفضي لي في نهاية المطاف بسرها: على الصورة السيئة المثبتة على الجهة اليسرى، تعرفت على داني بشعرها وقد بدا أكثر قصرا. غير أن الملف كان يحمل اسم امرأة تدعى ميراي سامبييري، تقطن في باريس في المقاطعة التاسعة، رقم 23، زقاق بلونش. كان التاريخ يشير إلى السنة التي سبقت لقاءنا ويحمل الإشارة التالية: "شهادة الإذن بالتوصل بالمراسلات والفاكسات معفاة من الضرائب." ومع ذلك فلم يكن مركز البريد يرتبط بذلك الرابض في زقاق لا كونفونسيون حيث كنت أرافقها مرات عديدة ولكن بـ "المركز 84" رقم 31، زقاق بالو، المقاطعة التاسعة. ترى كم عدد المراكز التي كانت تسحب منها بريدها؟ كيف وقع هذا الملف بين يدي هذا الشخص المدعو لانغلي أو أفراد مصلحته؟ وهذا الاسم "ميراي سامبييري،" ألم يتلفظ به لانغلي في مكتبه بدائرة جيسفر للأمن حينما قام باستجوابي؟ غريب حقا كيف أن بعض تفاصيل حياتك لا تتراءى واضحة للحين، لكنها لا تلبث أن تتكشف لك بعد مرور عشرين سنة، كما حينما تشاهد صورة قديمة مألوفة بواسطة عدسة مكبرة ويقفز وجه أو شيء ما لم تنتبه لوجوده حتى ذلك الحين، إلى حيز الوجود...

قادتني يمينا تحت الأقواس بزقاق كاستيليون.

"أدعوك للغداء... ليس المكان بعيدا جدا... يمكننا السير مشيا..."

في هذه الساعة، كان الحي موحشا بينما كان صوت أقدامنا يتصادى أسفل الأقواس. كان الهدوء عميقا بحيث لا يمكن أن يخدشه مرور سيارة ما ولكن فقط طقطقة سنابك حصان عربة. لا أدري إذا ما دار ذلك بخلدي آنذاك أم أن مؤشر الذاكرة يعود اليوم وأنا أخط هذه السطور. كنا نهيم على وجوهنا في باريس الليلية لشارل كرو ولكلبه ساتان، باريس تريستان كوربيير، وحتى جين دوفال. في ساحة الأوبيرا، كانت السيارات تتحرك، ومن جديد، كنا مرة أخرى في باريس القرن العشرين التي تبدو لي اليوم بعيدة جدا... واصلنا سيرنا على طول شارع لا شوسي دونتان، حيث تترامى الواجهة المظلمة للكنيسة، حتى النهاية، كطائر عملاق في وضع راحة.

أخبرتني: "نحن على وشك الوصول. يقع المقهى في بداية زقاق بلونش..."

في الليلة السابقة، راودني حلم بأننا نسير على طول الطريق ذاته، لا شك بسبب ما كتبته للتو. كان صوتها يتناهى إلى سمعي: "يقع المقهى في بداية زقاق بلونش،" واستدرت بهدوء نحوها. أخبرتها:

"في 23؟"

لم يبد أنها سمعت سؤالي. كنا نمشي بخطا منتظمة، ذراعها في ذراعي.

"كنت أعرف فتاة تدعى ميراي سامبييري، في المقاطعة 23 من زقاق بلونش."

لم تبدِ اعتراضا. بقيت صامتة كما لو لم أتفوه بأي شيء أو أن المسافة الزمنية كانت كبيرة بيننا بحيث أن صوتي لم يتمكن من بلوغها.

لكنني حتى ذلك المساء، كنت أجهل هذا الاسم، ميراي سامبييري. سرنا بمحاذاة ساحة لا ترينيتي.

"سترى... إنه مكان أحبه كثيرا... كنت أتردد عليه غالبا حينما كنت أقطن بزقاق بلونش..."

أذكر أنني بواسطة ربط الأمور ببعضها بعض فكرت في البارونة بلونش. كنت قد دونت بعض الملاحظات بشأنها، أياما قليلة قبل ذلك، في مذكرتي وذلك بنقل إحدى الصفحات من كتاب مخصص لباريس في عهد لويس الخامس عشر: كان الأمر يتعلق بتقرير ضم القليل من الأشياء التي كانت متداولة حول الحياة الفوضوية والبوهيمية لهذه المرأة.

سألتها: "هل تعلمين لماذا سمي هذا الزقاق بهذا الاسم؟"

"بسبب البارونة بلونش."

في يوم آخر، كانت ترغب في الاطلاع على ما كنت أدونه في مذكرتي وهكذا تلوت عليها الملاحظات المتعلقة بهذه المرأة.

قالت وهي تبتسم: "إذن، فأنا كنت أقطن في زقاق البارونة بلونش؟"

كان المطعم يقع في ركن من زقاق بلونش وزقاق صغير يرتبط بكنيسة لا ترينيتي. أسدلت الستائر وراء النوافذ الزجاجية لواجهته. تقدمت كما لو أنها تلج مكانا أليفا بالنسبة لها. مشرب كبير، في الجوف، وعلى كل جانب صف من الموائد الدائرية تعلوها أغطية بيضاء. جدران بأحمر غامق، بسبب الضوء الذي يتسرب خافتا عبر الستائر. لم يكن هناك سوى زبونان - رجل وامرأة- في طاولة قريبة من المشرب الذي ينتصب وراءه رجل أسمر في الأربعينيات من عمره.

"آه، ها أنت ذي..." قال لداني، كما لو تفاجأ لوجودها.

بدا عليها الحرج شيئا ما. أخبرته:

"لم أكن في باريس كل هذا الوقت..."

حياني بحركة مقتضبة من رأسه. قدمتني إليه.

"صديق."

قادنا إلى إحدى الموائد، بالقرب من الباب، ربما لكي نشعر بالهدوء، بعيدا عن الزبونين الآخرين. بيد أن هذين الأخيرين لم يكونا يتحدثان كثيرا، أو ربما كانا يتحدثان بصوت خفيض.

أخبرتني: "نحن بخير هنا. كان علي أن أصطحبك هنا من قبل..."

كانت هذه هي المرة الأولى التي تبدو فيها مرتاحة. في كل مكان من باريس حيث كنت أرافقها، كنت ألاحظ شيئا من القلق يملأ نظرها.

"لقد أقمت في مكان يوجد بالأعلى على مسافة قصيرة... في فندق... حينما غادرت الشقة التي توجد في شارع فليكس فور..."

خلال زمن كتابة هذه السطور، أقرأ من جديد في الملف: "ميراي سامبييري تقيم في باريس المقاطعة التاسعة، 23، زقاق بلونش." غير أن "23" لم يكن فندقا، لقد تحققت من الأمر. إذن، لماذا أخبرتني بأنها كانت تقيم في فندق؟ لماذا هذا الكذب الذي يبدو في ظاهره غير مؤذ؟ وهذا الاسم: ميراي سامبييري؟ فات الأوان لكي أستفسر عن ذلك، باستثناء في الأحلام التي تراودني حيث تتداخل الأزمنة وحيث يمكنني أن أطرح عليها كل الأسئلة بفضل ما علمته في ملف ذلك الشخص المدعو لانغلي. لكن كل هذا يبقى دون جدوى. فهي لا تصغي إلي وينتابني هذا الشعور الغريب من الغياب الذي تشعرُ به

حينما تراودك أحلام بشأن أصدقاء ماتوا والذين تراهم مع ذلك، في حلمك، على مسافة قريبة جدا منك.

"وماذا كنت تفعلين خلال كل هذا الوقت؟"

كان منتصبا أمام طاولتنا. قدم لنا كأسان من مشروب كوانترو، وهو يعتقد بأن لنا نفس الذوق.

"كنت أحاول البحث عن عمل..."

استدار نحوي وألقى علي نظرة ملؤها السخرية، كما لو أنه لا يصدق ما قالته للتو وبالتالي يُشهدني على ذلك.

"لكنها لم تقدمنا مع ذلك إلى بعضنا بعض. أندري فالفي..."

صافحني وهو يبتسم لي دائما. غمغمت قائلا:

"جون..."

كنت دوما أجد حرجا في تقديم نفسي وأن أدخل حياة شخص آخر بهذه الطريقة المباغتة، التي تكاد تكون عسكرية والتي تفترض تحية عسكرية من نوع ما. حتى يبدو ذلك أقل رسمية، كنت أتجنب ذكر اسمي العائلي.

"والعمل، هل وجدته؟"

لم تكن فقط السخرية التي تفيض من نظره. كان الأمر يبدو كما لو كان يوجه حديثه إلى طفل.

"بالطبع... كاتبة... معه..."

أشارت إلي بأصبعها.

"سكرتيرة؟"

هز رأسه على نحو ينم عن تقدير خاطئ.

"لقد سأل بعض الأشخاص عنك. كما أنهم طرحوا علي الكثير من الأسئلة، لكن لا داعي للقلق... فأنا لم أخبرهم بأي شيء... قلت لهم بأنك غادرت إلى الخارج..."

"أحسنت."

نظرت حولها، كما لو تريد أن تتحقق بأن لا شي من الديكور قد تغير. بعد ذلك، استدارت نحوي:

"هذا المكان هادئ جدا..."

شعرنا بأننا في منأى عن كل شيء، في مغارة حيث يتعذر على أي كان أن يلج مادام أن رداءا سميكا بلون أحمر كان يتهادى أمام المدخل. اختفى الرجل والمرأة اللذان كانا يجلسان في الطاولة الداخلية دون أن أنتبه إلى ذلك، ولا توجد لدي أية وسيلة منذ الآن لمعرفة هويتهما.

أجبتها: "نعم، هادئ جدا."

"لقد نسيت بأن اليوم هو يوم الإغلاق..."

توجه نحو المشرب وقبل أن يمر عبر الباب الذي يؤدي إلى المطبخ قال:

" لم أكن أتوقع أي شخص على العشاء هذا المساء... أحذركم بأن حظهم مرهون بما يوجد في القدر..."

مالت نحوي، وتلامست صفحات جبيننا. همست:

"إنه لطيف جدا... لا يشبه بتاتا أشخاص فندق أونيك... بوسعك أن تشعر بالثقة..."

لم أدرك حينها لماذا كانت تسعى دوما لطمأنة جانبي. يبرز اسم هذا الشخص، أندري فالفي، بين صفحات الملف الذي سلمه لي

لانغلي، ويالـه مـن إحسـاس غريـب أن تجـد طريقـك كـل مـرة إلى توضيحات بعد مرور عشرين سنة حول أشخاص كنت قد التقيت بهم في الماضي... ستفككك في الأخير، بفضل شيفرة سرية، كل ما حييته مسربلا في الغموض، دون أن تستوعبه تماما... رحلة على متن سيارة، الليل بجسمه الغليظ، كل الأضواء مطفأة، وعليك أن تلصق الجبين بالزجاج ذلك أنك لا تمتلك أية علامة تستدل بها على الطريق. وعلى أي، هل طرحت فعلا الكثير من الأسئلة حول الهدف من السفر؟ بعد مرور عشرين سنة، تسير في الطريق ذاته في وضح النهار، وترى في الأخير كل تفاصيل المشهد. لكن ما الفائدة من ذلك؟ لقد فات الأوان كثيرا، لم يعد هناك أي شخص. أندري فالفي، عضو في جماعة ستيفاني. اعتقل بالدائرة المركزية للأمن ببواسي. مربي الكلاب في بورشفيل. مسير كارول بيتش في لا غاروب. مطعم لا باسي، شارع غوفيون سانت سير. لو سيفينيي، زقاق بلونش.

أخبرتني: "علينا العودة إلى هذا المكان."

عدنا مرات عديدة. لم تكن الصالة فارغة كما في المساء الأول، لكن كان هناك حول الموائد زبائن غريبين كنت أتساءل إذا ما كانوا من سكان الحي. كان العديد منهم يتحلق حول المشرب ويتحدث إلى المدعو أندري فالفي. تمت الإشارة إلى بعضهم في ملف لانغلي. أسماء، أسماء عادية سأنقلها هنا، بكل عشوائية، لكنني أجبن عن ذلك الآن. سأقوم بذلك لاحقا، من باب تبرئة الذمة. فنحن لا ندري أي شيء، يجب دائما إرسال إشارات. كان شيء ما يحجب فلول النور، كما لو أن المصابيح الضوئية كانت تفتقر إلى الطاقة اللازمة. اللهم إلا إذا كان المدعو فالفي يسعى لجعل الجو أكثر حميمية. بعد أن دونت هذه

الملاحظات، ثمة شك يساورني. هذا الضوء هو الضوء ذاته الذي ينبعث في الشقة الموجودة بشارع فليكس فور حيث كانت داني قد قادتني ذات مساء؛ إنه الضوء ذاته الذي كان يعم المنزل الريفي في لا باربوري، بفويوز، حينما حل الليل. يمكن القول بأن المصابيح فقدت توهجها مع مرور الوقت. لكن أحيانا يداخلني إدراك حدسي. البارحة، كنت بمفردي في الزقاق وزال حجاب. لم يعد هناك ماض، لم يعد هناك حاضر، توقف الزمن. استعاد كل شيء نوره الأصلي. كانت الساعة تشير إلى حوالي الثامنة مساء خلال موسم الصيف وكانت ذيول الشمس لا تزال عالقة أسفل زقاق بلونش. نضد النادل طاولتان أو ثلاثة على الرصيف، أمام المطعم. كان الباب مشرعا على الزقاق، وكانت ضوضاء الحديث تنبعث من الداخل. جلسنا في الخارج في إحدى الطاولات، داني وأنا. جعلتنا أشعة الشمس نرف جفوننا.

قالت: "يجب أن أدلك على الفندق الذي كنت أقيم فيه. فهو يوجد على مسافة قريبة بالأعلى."

"في 23."

"نعم في 23."

ولم تندهش لأنني كنت أعرف الرقم.

"لكن هذا ليس فندقا."

لم تحر جوابا، ولم يكن لذلك أية أهمية. كانت ترغب في أن نتجول في الحي قبل حلول الليل. لكن كان هناك متسع من الوقت. بفضل التوقيت الصيفي، كان الزمن نهارا على الساعة العاشرة مساء. وبدا لي بأنها ستكون ليلة بيضاء.

منذ قليل، كنت في مكتبة بشارع أوديون. كان الليل قد حل. اكتشفت على رفوف الكتب المستعملة رواية ذات غلاف أحمر في حالة متسخة تحمل العنوان التالي: انتهت الأحلام. لم يكد صاحب المكتبة يضع الكتاب في حقيبة بلاستيكية بيضاء ويمده لي حتى دخلت امرأة. لم توصد الباب الزجاجي وراءها، كما لو أنها كانت في عجلة من أمرها. لاحت امرأة خلاسية في سن معينة، ضخمة البنيان، ترتدي معطفا قديما لونه كلون الزنجار وكان حزامه يتدلى. كانت تحمل كيسا. توجهت نحونا ووضعت كيسها على المكتب.

"هل تشتري الكتب؟"

كانت قد طرحت سؤالها على نحو مباغت بنبرة تحاكي نبرة السكان القدامى لضواحي باريس.

نبر صاحب المكتبة: "هذا رهن الظروف."

"أرسلتني عجوز... أشتغل لديها..."

أخرجت كتبا من كيسها: كتب للفن، أجزاء من سلسلة لا بلياد... كان عقد ومشبك يلتحم بأحدها، وهكذا أعادتها إلى الكيس. كانت بين الفينة والفينة تقوم بحركة مباغتة فتستل بعض الأوراق النقدية. جمعتها ثم وضعتها في أحد جيوب معطفها.

سأل صاحب المكتبة: "وهذه العجوز، هل تقطن في الحي؟"

"لا... لا... إنها تقطن في المقاطعة السابعة عشر. إنها مشغلتي..."

"يجب أن تعطيني عنوانها."

"لماذا؟"

غدا مزاجها عنيفا، على حين غرة. كان هذا العقد، والمشبك وهذا الأوراق النقدية تعطي الانطباع بأن الأمر يتعلق بعملية سطو نفذت على عجل. كانت الكتب مكدسة على المكتب.

"إذن فأنت لا ترغب في هذه الكتب؟"

"ليس الآن."

بغضب طوحت الكتب، الواحد بعد الآخر، في جوف الكيس. كان الرجل ينظر إلى أغلفتها في محاولة لرصد بقع دم. لعله كان يظن أنها اغتالت العجوز التي تدعوها بـ "مشغلتها."

هزت منكبيها دون أن تغلق الباب وراءها. خشية أن تختفي إلى الأبد، اعترضت طريقها بساقي على الفور.

ما أن لمحتها في المكتبة، حتى بدت لي صورة حية عن جين دوفال، أو جين دوفال بلحمها وشحمها. قامة عالية، نبرتها الباريسية والكيس الذي وضعت فيه الكتب، حِلي وأوراق نقدية تطابق إلى حد ما التفاصيل القليلة التي دونتها في ما مضى في مذكرتي السوداء. كانت تتقدمني بحوالي عشرة أمتار وكانت تعرج قليلا. كان بوسعي اللحاق بها، لكنني كنت أفضل أن أتعقبها عن مسافة حتى تترسخ لدي القناعة بأن الأمر يتعلق بها هي فعلا. كان حزام معطفها يتدلى من الجهتين وهي تحمل الكيس بيدها اليسرى، وكان ثقل هذا الكيس يجعل زندها يميل جانبا. لم تتغير أعمدة الكهرباء، على واجهات مباني الزقاق، منذ القرن التاسع عشر وكانت بالكاد تضيء المكان. كنت أخشى أن تغيب عن نظري. عند ملتقى الطرق بلوديون، كانت تغذ السير نحو

مدخل قطار الأنفاق. حثثت السير وراءها. في اللحظة التي كانت تستعد لنزول السلالم، صرخت:

"جين..."

التفتت. حدجتني بنظرة قلقة، كما لو باغتتها وهي ترتكب جرما. للحظة، لم نحرك ساكنا ونحن ننظر إلى بعضنا بعض. أردت أن أتقدم نحوها ومرافقتها على رصيف قطار الأنفاق وأن أحمل كيسها. لكنني لم أبرح مكاني. صارت قدماي ثقيلة ثقل الرصاص، الشيء الذي يحدث لي غالبا في الأحلام. كما أنها نزلت السلالم بسرعة كبيرة. كانت تخشى دون شك أن ألحق بها. لا شك أنها اعتقدت أنني مخبر في زي مدني. بسبب التأثر، جلست عند قدم تمثال دانتون. كانت قد أخبرت صاحب المكتبة بأن "مشغلتها" تقطن في المقاطعة السابعة عشر. لكن طبعا، هذا يطابق الشهادة الأخيرة التي قرأتها حولها. لا أحد يعلم تاريخ وفاتها على وجه التحديد، وكنت أتساءل إذا ما كانت قد قضت نحبها فعلا. وعلى أي، لا نعلم حتى تاريخ ميلادها. لا يزال ظلها حاضرا بقوة في بعض أحياء باريس. أعلن شاهد العيان الأخير الذي تعرف عليها لأنه كان يقطن بجوارها بأنها تسكن في المبنى 17 من زقاق سوفروي. لقد كان ذلك فعلا في المقاطعة السابعة عشر. مسيرة طويلة على متن قطار الأنفاق. من لوديون، كانت تغير القطار بمحطة سيفر بابيلون. وبعد ذلك، بسانت لازار. كانت تغادر القطار بمحطة بروشون. قطعت وعدا بأن أذهب في يوم من الأيام إلى زقاق سوفروي. على الأقل، لدي علامة غامضة. بيد أنه ليس بوسعي القول الشيء ذاته بشأن الأشخاص الذين عرفتهم في مرحلة أقرب من تلك المتعلقة بجين دوفال والذين تمت الإشارة إليهم أيضا في مذكرتي السوداء. أجهل

ما حدث لهم. أظن أن أولائك الذين كانت تلقبهم داني بـ "أنذال فندق أونيك" قد لقوا حتفهم، على الأقل "جورج،" المدعو روشار، وبول شاستانيي. لست على نفس الدرجة من اليقين بشأن دوفيلتز وجيرار مارسيانو. كما أنني لا أعلم أي شيء عن أغاموري. أما داني فقد اختفت نهائيا. ومع ذلك، فإنني كنت قد دونت على الصفحة الأخيرة من المذكرة السوداء قائمة لبعض التفاصيل التي كان من المفترض أن تضعني في أثرها. كنت قد أضفت التفاصيل الأخرى التي لم أكن أعلمها والتي علمتها لاحقا وأنا أتصفح ملف لانغلي. ومع ذلك، فقد بقيت أبحاثي دون جدوى وانتهى بي المطاف في لحظة ما إلى التخلي عنها. لم تعد تراودني الكثير من الأوهام. كل هذا سيجد طريقه إلى النسيان، بين يوم وآخر.

* * *

منذ أن شرعت في كتابة هذه السطور، كنت أفكر بأن ثمة وسيلة، تحديدا، لمقاومة النسيان. أن يزور المرء بعض المناطق من باريس التي لم يعد إليها منذ ثلاثين أو أربعين سنة وأن يرابط هناك خلال الزوال، كما لو يقوم بالحراسة. لعل الأشخاص الذين كنتَ تتساءل عما حل بهم قد ينبثقون على حين غرة من زاوية زقاق، أو يظهرون على ممشى منتزه، أو سيخرجون ببساطة من إحدى تلك البنايات التي تحاذي هذه الأماكن المغلقة المهجورة التي تلقب بـ "ساحة" أو "فيلا." إنهم يحيون حياتهم الخاصة، وهذا لن يتأتى لهم إلا في الأماكن الهادئة، بعيدا عن ضوضاء المركز. بيد أنني خلال المناسبات النادرة التي ظننت فيها أنني تعرفت على داني، كان ذلك وسط الزحام: مرة ذات مساء، بمحطة ليون،

حينما كان علي أن أستقل قطارا، وسط جلبة رحلات العطل، ومرة ذات يوم سبت عند نهاية الزوال، عند ملتقى الطرق للشارع ولا شوسي دونتان وسط سيل الذين يتحلقون عند بوابات المحلات التجارية الكبرى. لكنني، كل مرة، كنت على خطأ.

ذات صباح شتوي، منذ عشرين سنة، تم استدعائي إلى المحكمة الابتدائية بالمقاطعة الثالثة عشر، وحوالي الساعة الحادية عشر، عند مغادرة المحكمة، كنت على الرصيف بساحة إيطاليا. لم أعد إلى هذه الساحة منذ ربيع سنة 1964، فترة كنت خلالها أتردد على الحي. انتبهت فجأة إلى أنني لا أملك ولو فلسا واحدا لكي أستقل سيارة أجرة أو قطار الأنفاق للعودة إلى منزلي. وجدت شباكا أوتوماتيكيا في زقاق صغير خلف مقر العمدة، لكن بعد أن وضعت رموز الشيفرة حصلت على ورقة بدل الأوراق النقدية. كان تحمل العبارة التالية: "المعذرة لا يوجد لديك رصيد كاف." من جديد، وضعت الشيفرة، وكانت العبارة ذاتها في انتظاري: "المعذرة لا يوجد لديك رصيد كاف." قمت بجولة حول بناية العمدة ومرة أخرى كنت على رصيف ساحة إيطاليا.

كان القدر يشدني إلى هذا المكان ولم يكن من الضروري معاكسته. ربما لن أتمكن أبدا من مغادرة هذا الحي، مادام رصيدي غير كاف. شعرت بالخفة بسبب شمس وزرقة سماء شهر كانون الثاني. لا توجد ناطحات السحاب في سنة 1964، لكنها تتلاشى الآن شيئا فشيئا في الهواء الصافي لتفسح المجال لمقهى ضوء القمر وللمنازل الواطئة على طول شارع المحطة. كنت قد تسللت إلى زمن مواز حيث يتعذر على أي شخص الوصول إلي.

الأشجار ذات الأوراق العريضة بساحة إيطاليا... كنت أعيد هذه الجملة وعلي الاعتراف بأنها جعلت الدموع تصعد إلى مآقي، أم أنه ببساطة قر الشتاء؟ على العموم، عدت إلى نقطة الانطلاق، ولنفترض أن الشبابيك الأوتوماتيكية لم تكن موجودة حوالي سنة 1964، فستكون العبارة ذاتها في انتظاري: رصيد غير كاف. في هذه الفترة لم أكن أتمتع بأي حقوق أو صفة شرعية. لا عائلة ولا وسط عائلي واضح التحديد. كنت فقط أطفو في هواء باريس.

كنت أسير باتجاه ما كان يعرف بمقهى ضوء القمر. كنا نجلس لساعات طويلة في الطاولات الداخلية، بالقرب من منصة الموسيقيين، دون أن نطلب أي شيء. أقوم بجولة حول المكان. يجب أن أستأجر غرفة في فندق صغير، ربما فندق كوبيل إذا ما زال قائما، أو فندق آخر نسيت اسمه يوجد بجانب كوبلان. كنت قد وصلت إلى زاوية شارع سور روزالي وكنت أسير من جديد نحو مقر العمدة وأنا أتساءل إلى متى سأبقى أدور في الساحة كما لو كانت حقلا مغناطيسيا يجذبني إليه. توقفت عند سطح مقهى. لاح رجل في سن معينة يجلس إلى طاولة، وراء الواجهة الزجاجية، وكان يرقبني. أنا الآخر أخذت أنظر إليه دون انقطاع. كانت ملامح وجهه تذكرني بشخص ما. ملامح محددة التقاسيم. شعر رمادي-أو أبيض- على شكل تسريحة طويلة. أشار إلي بذراعه. أراد أن ألحق به في المقهى.

انتصب واقفا عند اقترابي ومد يده ليصافحني.

"لانغلي. هل تذكرني؟"

انتابني التردد قليلا. لا شك أن صرامته العسكرية وهذه "هل تذكرني" أسعفتني في التعرف عليه. كما أننا لا ننسى أبدا وجوه الأشخاص الذين التقينا بهم في فترة عصيبة من حياتنا.

"مركز جيسفر..."

بدت عليه الدهشة لأنني أخبرته بذلك:

"يبدو لي أن لك ذاكرة قوية..."

جلس وأشار إلي لكي أجلس في الكرسي المقابل له.

أخبرني: "كنت أتعقبك من بعيد كل هذا الوقت. حتى أنني قرأت كتابك الأخير حول هذه... جين دوفال..."

لم أعرف ماذا أقول. كررت:

"كنت تتعقبني؟"

ابتسم، وتذكرت بأنه كان يبطن لي في الماضي شيئا من العطف.

"نعم... كنت أتعقبك... لقد كان ذلك نوعا ما عملي..."

كان ينظر إلي وهو يقطب جبينه، كما في القرن الماضي في مكتبه بدائرة الشرطة بجيسفر. ماعدا شعره الرمادي الذي تركه يتطاول، فقد بقي إلى حد ما على حاله. ومع أن الجو لم يكن حارا جدا في هذا السطح الزجاجي فقد كان يرتدي جاكيتة يمكن أن تنتمي إلى تلك الفترة البعيدة حينما قام باستجوابي.

"أفترض أنك لا تقيم في هذا الحي... وإلا لكنت التقيت بك من قبل..."

"لا، لا أقيم هنا. ولم أعد إلى هنا منذ زمن... منذ فترة دائرة الشرطة بجيسفر..."

"هل تريد أن تتناول شيئا ما؟"

كان النادل ينتصب أمام طاولتنا. كنت على وشك أن أطلب مشروب كوانترو، إحياء.لذكرى داني، لكنني لم أكن أملك فلسا واحدا وكنت حقا أشعر بالضيق أن يقوم بدعوتي.

تمتمت: "أوه، لا حاجة إلى ذلك."

"ولكن لا، يجب أن تتناول شيئا ما..."

"إذن فليكن كوب قهوة."

فقال: "الشيء ذاته بالنسبة لي."

ران صمت بيننا. وكان علي أبادره بالحديث.

"هل تقيم في الحي؟"

"نعم، كنت دوما أقيم هنا."

"أنا الآخر، حينما كنت شابا، كنت أعرف هذا الحي جيدا... هل تذكر مقهى ضوء القمر؟"

"بطبيعة الحال. لكن ماذا كنت تفعل في مقهى ضوء القمر؟"

اتخذ صوته النبرة ذاتها التي ميزته حينما قام باستجوابي في الماضي. ابتسم لي:

"لست مجبرا على الجواب. فنحن لم نعد في مكتبي..."

وراء الواجهة الزجاجية، كنت أشاهد جزءا من ساحة إيطاليا التي لم تتغير تحت وهج الشمس وزرقة السماء. شعرت بأن الاستجواب تم البارحة. ابتسمت له بدوري.

"ومتى تريد أن تستأنف الاستجواب؟"

هو الآخر، كنت على يقين، كان يساوره الإحساس ذاته. كان الزمن قد انمحى. لم يكن هناك فاصل ما بين مركز جيسفر للشرطة وساحة إيطاليا.

أخبرني: "هذا غريب. لمرات عديدة، كنت أرغب في ربط الاتصال بك... حتى أنني اتصلت بك هاتفيا مرة في دار النشر، لكنهم رفضوا أن يعطوني عنوانك."

مال نحوي وقطب جبينه.

"لاحظ... كان بإمكاني أن أجد عنوانك... فقد كان ذلك عملي..."

اتخذ صوته مرة أخرى النبرة الجافة التي ميزته بمركز جيسفر. لم أعد أدري إذا ما كان يمزح.

"فقط، كنت أخشى أن أضايقك... وأن أزعجك بطريقتي...

هز رأسه كما لو كان يتردد في إخباري بشيء ما. انتظرت، الذراعان متشابكتان. بدا لي أن الأدوار انقلبت فجأة رأسا على عقب وأنني أنا الذي يوجد خلف مكتبه وسأقوم باستجوابه.

"حسنا... حينما تقاعدت عن العمل، احتفظت بملفين أو ثلاثة من باب الذكرى... ومن بين هذه الملفات، هناك ملف أولئك الذين بسببهم تم استجوابك في مكتبي، بمركز جيسفر..."

كان منزعجا إلى حد الخجل، كما لو اعترف بشيء مشين قد يسبب لي صدمة.

"إذا كنت مهتما..."

تساءلت إذا ما كنت في حلم. دخل رجل وجلس إلى إحدى الطاولات الموجودة في السطح، بجوف المقهى، وكان يضغط بسبابته رقما هاتفيا على هاتفه الخلوي. جعلتني رؤية هذا الشيء أتيقن بأن الأمر لا يتعلق بحلم وأننا كنا نتواجد كلانا، في الحاضر، في العالم الحقيقي.

نبرتُ: "بطبيعة الحال، أنا مهتم."

"هذا هو السبب الذي جعلني أرغب في معرفة عنوانك... كنت أفكر في إرسال كل هذا عن طريق البريد."

أخبرته: "أشخاص غريبون. كنت أفكر في ذلك غالبا في تلك اللحظة..."

كنت أرغب في أن أشرح له سبب اهتمامي بهذا الملف الذي يعود تقريبا إلى نصف قرن. لقد عشتَ فترة قصيرة من حياتك- يوما بعد يوم دون أن تطرح أية أسئلة- في ظروف غريبة، ضمن أشخاص غريبين أيضا. ولن يكون بوسعك إلا بعد مرور فترة طويلة أن تفهم أخيرا دون أن تطرح أية أسئلة- ما حييته ومن يكون هؤلاء الأشخاص على وجه التحديد الذين كانوا يحيطون بك، شريطة أن يهبك شخص ما وسيلة لتفكيك لغة مشفرة. أغلب الأشخاص لا يوجدون في هذه الوضعية: ذكرياتهم بسيطة، مسطحة، ويكتفون بذواتهم، وليسوا بحاجة للعشرات والعشرات من السنين لرفع اللبس عنها.

أخبرني، كما لو خمن ما كنت أفكر فيه: "أتفهم وضعك جيدا. هذا الملف سيكون بالنسبة لك كقنبلة موقوتة..."

تصفح بطاقة المقهى. شعرت بالضيق والحرج لأنني كنت عاجزا عن دعوته. لكنني لم أجرؤ ذلك الصباح أن أعترف له بأن رصيدي غير كاف.

في الخارج، على رصيف الساحة، بقينا مسمرين في مكاننا دون أن ننبس بكلمة واحدة. على ما يبدو، لم يكن يرغب في أن يودعني مباشرة.

"يمكنني أن أسلمك هذا الملف يدا ليد... لا حاجة لإرساله بواسطة البريد... أنا أقيم على مسافة قريبة من هنا..."

"هذا لطف كبير منك."

قمنا بدورة حول الساحة، ثم أشار بأصبعه إلى ناطحة سحاب في زاوية شارع شواسي.

ثم وهو يشير إلى أسفل ناطحة السحاب: "هناك كان يوجد مقهى ضوء القمر. "كان أبي يصطحبني هناك غالبا... كان يعرف صاحبة المقهى..."

سرنا على طول شارع شواسي.

"أسكن أسفل الشارع على بعد مسافة قصيرة... لا تقلق... لن أتركك تسير لمسافة طويلة..."

وصلنا بالقرب من شواسي. أذكر هذه الساحة التي كانت تشبه بالأحرى منتزها، البناية الكبيرة من الآجر الأحمر والتي كانت تعرف بمركز الأسنان والثانوية التأهيلية للبنات، في الداخل. على الجانب الآخر من الشارع، بعد ناطحات السحاب، هناك منازل واطئة تعرفت عليها. لكن لكم من الوقت؟ توقف لانغلي أمام مبنى صغير يشكل زاوية زقاق مغلق والذي يوجد في طابقه الأرضي مطعم صيني.

"لن أدعوك إلى الأعلى... سأشعر بالعار... تعم الفوضى في المكان... لن أتأخر كثيرا..."

وحيدا على الرصيف، أخذت أتأمل الأشجار العارية لساحة شواسي وفي الأسفل تترامى الكتلة الحمراء الغامقة لمعهد الأسنان. كان هذا المبنى يبدو لي دوما وقحا وسط المنتزه. لا تشير ذكرياتي عن ساحة شواسي إلى فصل الشتاء، لكنها ذكريات ترتبط بالربيع أو الصيف حينما يتباين لون أوراق الأشجار مع اللون الأحمر القاني للمعهد.

"فيما تحلم؟"

لم أنتبه إلى وقع خطواته وهو يقترب. كان يمسك في يده ملفا بلاستيكيا أصفر. مده لي.

"أمسك... ملفك... إنه صغير جدا، لكنه قد يثير اهتمامك..."

ترددنا في المغادرة. رغبت في دعوته للفطور.

"آمل أن لا تكون قد انزعجت لأنني لم أدعوك إلى الأعلى... إنها مجرد شقة صغيرة جدا كان يسكنها والدي... النقطة الإيجابية الوحيدة هي منظر جميع الأشجار..."

ثم أشار إلى مدخل ساحة شواسي.

"كنا نتحدث قبل قليل عن مقهى ضوء القمر... كانت ربة المقهى قد اغتيلت هناك، في الساحة... أترى... البناية من الآجر الأحمر... معهد الأسنان..."

كان غارقا في ذكرى مؤلمة.

"لقد حملوها إلى المعهد... دفعوها إلى الجدار ثم أطلقوا عليها وابلا من النار من الخلف... وبعد ذلك اكتشفوا بأنهم ارتكبوا خطأ..."

هل شاهد الحدث من نافذة شقته؟

"حدث ذلك خلال تحرير باريس... استقرت مجموعة كاملة بمعهد الأسنان... أشباه مقاومين... القبطان برنار والقبطان مانو... وملازم أول نسيت اسمه..."

كنت أجهل هذه التفاصيل حينما كنت أجتاز ساحة شواسي، في الماضي، عندما كنت أنتظر عند مخرج ثانوية تأهيلية صديقة من صديقات الطفولة.

"لا يجب النبش في الماضي كثيرا. وكنت أتساءل إذا ما كنت على حق وأنا أعطيك هذا الملف... هل التقيت الفتاة من جديد؟ تلك التي تحمل الكثير من الأسماء؟"

لم أفهم حالا إلى من كان يحيل.

"تلك التي بسببها استجوبتك في مركز جيسفر. ماذا تسميها، أنت؟"

"داني."

"في الواقع، كانت تدعى دومينيك روجي. لكنها كانت تحمل أسماء أخرى."

دومينيك روجي. ربما كان هذا الاسم هو الذي تستعمله للحصول على رسائلها من مركز البريد. لم أتمكن أبدا من رؤية الإسم على الأظرفة. كانت تدس الرسائل فورا في جيب معطفها بعد أن تقرأها.

"ربما عرفتها تحت اسم ميراي سامبييري؟"

"لا؟"

بسط ذراعيه ونظر إلي بنظرة ملؤها التعاطف.

"هل تعتقد أنها لا تزال على قيد الحياة؟"

"هل ترغب فعلا في معرفة ذلك؟"

لم يسبق لي أبدا أن طرحت على نفسي هذا السؤال بكل هذه الدقة. إذا كنت أنشد الأمانة الذاتية، فبوسعي أن أجيبه: لا. ليس فعلا.

أخبرني: "ما الفائدة من ذلك؟ لا يجب الإلحاح كثيرا. ربما قد تلتقي بها في الشارع في يوم من الأيام. ها قد التقينا نحن الاثنين..."

كنت قد فتحت الملف البلاستيكي الأصفر. بنظرة خاطفة، لاحظت أنه يضم عشرات الأوراق.

"من الأفضل أن تقرأ كل هذا وأنت مرتاح البال... إذا ما احتجت إلى تفسير، فأعلمني."

فتش في الجيب الداخلي لصدريته وأعطاني بطاقة زيارة صغيرة جدا كتب عليها: لانغلي، 159، شارع شواسي، إضافة إلى رقم هاتفي.

بعد أن خطوت قليلا، استدرت. لم يبرح مكانه. بقي هناك، وسط الرصيف، وهو يرقبني من بعيد. كان دون شك يتتبعني بنظره حتى أتوارى عند نهاية الشارع. حينما كان يزاول عمله، لا بد أنه كان غالبا يقوم بالمراقبة خلال أيام الشتاء، كما هو الحال اليوم، أو خلال الليل، وهو يضغط يديه في جيوب واقيته المطرية.

"لا يجب النبش في الماضي كثيرا،" أخبرني لانغلي ونحن نهم بالافتراق، ومع ذلك فقد كنت مجبرا تلك الصبيحة الشتوية أن أسير طويلا على قدمي للعودة إلى منزلي في الطرف الآخر من باريس. هل كان فعلا تواجدي بساحة ايطاليا بعد أكثر من عشرين سنة وحصولي من الشباك الأوتوماتيكي على الورقة التالية: "المعذرة. لا يوجد لديك رصيد" محض صدفة؟ المعذرة على ماذا؟ ذلك الصباح كان شعور بالفرحة والخفة يتعاورني. جيوب فارغة. وذلك السير طويلا بخطى متوازنة، تتخلله فترات توقف على المقاعد... شعرت بالأسى لأنني لم أحمل معي مذكرتي السوداء. كنت قد حددت فيها مقاعد باريس على طول مسيرات مختلفة: شمال/جنوب، غرب/شرق؛ هذه المقاعد التي تحدد، كل مرة، الفترة التي يمكننا أن نرتاح خلالها للحظة، وأن نحلم. لم أعد أميز تماما أي فرق بين الماضي والحاضر. كنت قد بلغت الغوبلان. منذ سنوات شبابي - وحتى طفولتي - لم أكن أقوم بأي شيء آخر غير المشي، ودائما عبر الأزقة ذاتها، بحيث أن الزمن غدا شفافا.

كنت قد اجتزت حدائق النباتات وجلست إلى مقعد في الممشى الرئيسي. أشخاص قليلون يعبرون بسبب البرد. لكن الشمس كانت هناك دوما، وزرقة السماء التي تؤكد لي أن الزمن قد توقف. يكفي أن لا يبرح المرء مكانه حتى حلول الليل وأن يتطلع إلى السماء ليكتشف نجوما نادرة سأمنحها أسماء دون أن أكون على علم بأنها فعلا أسماءها

الفعلية. وتطفو إلى الذاكرة مقاطع كاملة من كتابي المفضل، خلال فترة زقاق لودن: الخلود عن طريق النجوم. كانت هذه القراءة تؤنس وحدتي بينما كنت أنتظر قدوم داني. كان الجو باردا أيضا في هذه الفترة على هذا المقعد من حديقة النباتات، وكان الثلج يكسو زقاق لود. لكن، وبالرغم من الجو البارد، تصفحت الملف البلاستيكي الأصفر. كانت هناك رسالة، موقعة من طرف لانغلي والتي لم ألاحظ وجودها حينما فتحت قبل قليل هذا الملف الأصفر وحينما أخبرني: "من الأفضل أن تقرأ كل هذا وأنت مرتاح البال." رسالة كتبت على عجل - بالكاد يمكن قراءتها - في شقته، قبل أن ينزل السلالم ليلحق بي ويسلمني الملف.

سيدي العزيز،

تقاعدت عن العمل منذ عشر سنوات، ومع ذلك فقد واصلت العمل مطولا في مراكز جيسفر وأورفيفر بينما كنت أنت تؤلف كتبك التي قرأتها بتأن وعناية.

كنت أذكر بالتأكيد مرورك بمكتبي بمركز جيسفر حينما قمت باستجوابك، حينما كنت في ريعان الشباب. فالوجوه تنحفر في ذاكرتي إلى الأبد. كان زملائي يمزحون معي هناك بالقول بأنه بإمكاني التعرف، بعد مرور عشر سنوات، على شخص من الخلف، مع أنني لم ألتق به سوى مرة واحدة في الشارع.

بعد أن غادرت نهائيا المصلحة، استبحت لنفسي حرية أخذ من أرشيفات المصلحة الدولية العتيقة بعض التذكارات من عملي ومن ضمنها، هذا الملف الناقص الذي يهمك والذي أردت دائما أن أسلمك إياه. تحقق ذلك أخيرا بفضل لقائنا اليوم.

يمكنك الاعتماد على حفظي للسر. على أي، أظن أنك كتبت في مكان ما بأننا نحيا تحت رحمة صمت هنا وصمت هناك.

بكل مودة،

لانغلي.

ملحوظة: حتى تشعر بالطمأنينة نهائيا أخبرك بأن التحقيق الذي كنت تشكل جزءا منه تم التخلي عنه نهائيا.

وأنا أتصفح الملف، عثرت على ملفات الحالة المدنية، على تقارير، وعلى محاضر استجوابات. ثمة أسماء شدت نظري: أغاموري، الغالي، جناح المغرب، الحي الجامعي، من مواليد السادس من حزيران 1938 بفاس. يدعي أنه "طالب"، عضو في مصالح الأمن المغربي. سفارة المغرب... جورج ب.، المدعو روشار، شعر كستنائي متوسط الطول، أنف مستقيم، ندوب كبيرة. الرجاء إعلام الإدارة، توربيغو 92000 في حالة توفر معلومات إضافية... امتثل أمامنا الشخص المدعو هنا دوفيلتز، الاسم الشخصي: بيير. الإطلاع على المحضر من طرف المتهم، اطلع ووقع... شاستانيي، بول، إيمانويل. القامة متر و80 سنتيمترا. لديه سيارة لانسيا رقم 1934 ج د 75... مارسيانو جيرار. للإشارة، ثمة ندبة بطول سنتيمترين على الحاجب الأيسر..."كنت أقلب الصفحات بسرعة كبيرة، متجنبا التوقف عند واحدة منها وكنت أخشى كل مرة أن أكتشف تفصيلا جديدا أو ملفا يخص داني. "دومينيك روجي المدعوة "داني." أسفل اسم ميراي سامبييري (23 زقاق بلونش) الملقبة بميشيل أغاموري، الملقبة بجينين دو شيو... حسب استعلامات دافان، كانت تقطن في فندق أونيك تحت اسم جينين دو شيو، من مواليد الدار البيضاء، في... كانت تتوصل ببريدها كما تشهد

على ذلك بطاقة الانخراط الملحقة والمسلمة من طرف المكتب 84 بباريس."

وأسفل هذه الصفحات التي تضمها إضبارة: "قذيفتان أصابتا الضحية. إحداها أطلق على مسافة تماس... العبوتان الفارغتان اللتان تطابقان الطلقتان تم العثور عليهما. حارس مركز 46 هنري الرابع..."

ذات مساء، كنا قد هبطنا، داني وأنا، قطارا بمحطة ليون. أظن أننا عدنا من ذلك المنزل الريفي الذي يدعى لا باربوري. لم نكن نحمل أي حقائب. كانت هناك زحمة في البهو، وكان الصيف قد حل، وإذا لم تخذلني الذاكرة، فقد كان ذلك خلال أول أيام العطلة النهائية. حينما غادرنا المحطة، لم نستقل قطار الأنفاق. ذلك المساء، لم تكن ترغب في العودة إلى فندق أونيك، وهكذا قررنا أن نمشي سيرا على الأقدام حتى مكان إقامتي بزقاق لود. في اللحظة التي كنا نهم فيها بقطع السين، أخبرتني:

"ألن تتضايق إذا ما قمنا بانعطافة؟"

قادتني على طول الرصيف، نحو جزيرة سانت لويس. كانت باريس موحشة كما يحدث غالبا خلال المساءات الصيفية، وكان هذا يتعارض مع الزحمة السائدة بمحطة ليون. حركة نادرة. إحساس بالخفة والعطلة. كنت قد دونت الكلمة الأخيرة بصيغة المفرد وبحروف بارزة في مذكرتي السوداء، إضافة إلى تاريخ: فاتح تموز، تاريخ ذلك المساء. كما أنني أضفت تعريفا لـ "عطلة" كما قرأته في قاموس: "طبيعة من يوجد في حالة عطالة، متاح."

واصلنا السير على رصيف هنري الرابع الذي يرتبط تحديدا بالموضوع، أسفل هذه الصفحة من ملف لانغلي، صفحة حيث حدد

بالضبط بأن الأمر يتعلق بـ "موت رجل." توقفت عند إحدى المباني الأخيرة، رقم 46، نفس الرقم الذي يظهر في الصفحة- تحققت منه في اليوم الذي التقيت فيه بلانغلي، بعد مرور عشرين سنة. ذلك اليوم، كان يكفي أن أجتاز الجسر من حديقة النباتات.

توجهتْ نحو البوابة وترددت قليلا:

"هل يمكنك أن تسدي لي معروفا؟"

كانت تتحدث بصوت يغشاه القلق، كما لو كانت توجد في مكان خطير حيث يمكن مباغتتها بين لحظة وأخرى.

"اقرع جرس الطابق الأرضي واسأل عن السيدة دورم."

كانت تنظر إلى نوافذ الطابق الأرضي الذي كانت خصاصاته المعدنية مقفلة. عبر الشباك ينبعث ضوء باهت.

همست: "هل ترى أي نور؟"

"نعم."

"إذا ما صادفت السيدة دورم، اسألها متى يمكن لداني أن تتصل بها هاتفيا."

كانت تبدو متوترة وربما شعرت بالحسرة على مبادرتها. أظن أنها كانت على وشك أن تعترض طريقي.

"سأنتظرك على الجسر. من الأفضل ألا أبقى أمام المبنى."

ثم أشارت إلى الجسر الذي يقطع الجزء الأخير من جزيرة سانت لويس.

اجتزت المدخل ثم توقفت يسارا، أمام باب مزدوج قوي من الخشب الشفاف. قرعت الجرس. لا أحد. ثمة صمت مطبق وراء الباب. ومع ذلك، فقد لمحنا ضوءا ينبعث عبر الخصاصات. انطفأ ضوء

الممر. قرعت الجرس مرة أخرى في العتمة. لا أحد. مكثت هناك، أنتظر في العتمة. كنت آمل فعلا أن يأتي شخص في الأخير وأن يفتح الباب، أن يضع حدا لهذا الصمت وأن يعتلق الضوء من جديد. في لحظة ما، قرعت الباب بقبضتي، لكن الخشب كان من السماكة بحيث أن ذلك لم يحدث أي صوت. هل قرعت الباب فعلا، ذلك المساء؟ كان غالبا ما يراودني حلم بشأن هذا الحدث لاحقا بحيث أن الحلم يداخل الواقع. في الليلة الماضية، كنت أغص في عتمة مطلقة، دون أي مؤشر وطرقت بابا بقبضتي، كما لو أن الباب أغلق دوني. كنت أختنق. استيقظت فزعا. نعم، من جديد الحلم ذاته. حاولت أن أتذكر إذا ما طرقت على ذلك النحو تلك الليلة البعيدة. على أي، كنت قد قرعت الجرس مرات ومرات في العتمة وقد اندهشت للطبيعة الحادة والمجلجلة لهذا الجرس. لا أحد. الصمت.

خرجتُ أنشد طريقي من المبنى. كانت تذرع الجسر جيئة وذهابا. أمسكت بذراعي وضغطت عليها. شعرت بالارتياح لعودتي، وتساءلتُ إذا ما كنت قد قمت للحين بعمل خطير. أخبرتها بأنني طرقت الباب دون جدوى.

أخبرتني: "ما كان علي إرسالك إلى هناك. لكن هناك لحظات أعتقد خلالها بأن الأمور هي دائما على حالها كما كانت في السابق..."

"قبل ماذا؟"

هزت منكبيها.

قطعنا الجسر وواصلنا المسير على رصيف لا تورنيل. لم تنبس بأي شيء، ولم يكن الوقت مناسبا لطرح أية أسئلة. كانت السكينة والطمأنينة

تغشى المكان: الواجهات العتيقة للمنازل، الأشجار، أعمدة الضوء التي ترسل أضواءها، الأزقة الضيقة والتي تفضي إلى الضفة وتوحي لي بريستيف دو لا بروتون. تمتلئ الكثير من صفحات مذكرتي السوداء بملاحظات ترتبط بهذا المكان بحيث أنني لم أشعر بالرغبة في طرح أية أسئلة عليها. كنت أشعر بالخفة، باللامبالاة، بالسعادة للسير هذه الليلة ضمن كل الليالي إلى جانبها على الرصيف وأن أعيد على مسامعي الاسم ذا الأحرف الصامتة الناعمة والغامضة لريستيف دو لا بروتون.

"جون... أريد أن أطلب منك شيئا..."

كنا نحاذي هذه الساحة التي شيدت دعما لأساسات الضفة، والتي توجد وسطها طاولات وأحواض نباتات تحد سطح مقهى. تلك الليلة، كانت هناك مظلات على الطاولات. ليلة صيفية في مرفأ صغير لميدي. وهمسات أحاديث.

"جون... ماذا سيكون موقفك لو أخبرتك بأنني ارتكبت شيئا خطيرا؟"

أعترف بأنني لم أجزع لسماعي هذا السؤال. ربما بسبب النبرة المحايدة التي اكتسبها صوتها، كما نستشهد بكلمات أغنية أو أبيات قصيدة شعرية. وبسبب هذه "جون... ماذا سيكون موقفك" استعدت بيتا شعريا: "قولي بليز/هل نحن بعيدون جدا عن مونتمارت؟"

"ماذا سيكون موقفك لو أنني قتلت شخصا ما؟"

اعتقدت أنها تمزح أو أنها طرحت هذا السؤال بسبب الروايات البوليسية التي كانت تدأب على قراءتها. لقد كانت الكتب الوحيدة التي تقرأها على أي حال. ربما في إحداها تطرح امرأة السؤال ذاته على خطيبها.

"ماذا سيكون موقفي؟ لا شيء."

اليوم، سيكون جوابي مشابها. هل لدينا الحق في إصدار الأحكام بشأن الأشخاص الذين نحبهم؟ إذا كنا نحبهم، فلا بد لسبب ما، وهذا السبب يمنعنا من إصدار الأحكام بشأنهم. أليس كذلك؟"

"أخيرا... إذا لم أكن قد قتلته فعلا... إذا ما كان ذلك حادثا..."

"أشعر بالطمأنينة."

بدا عليها التذمر لهذا الجواب الذي كان يلزمني الكثير من السنوات لاستيعاب جفائه والمزاح السيئ اللاإرادي الذي اكتنفه.

"نعم... حادث... لقد انطلق من تلقاء ذاته..."

أخبرتها: "هناك غالبا طلقات طائشة."

فكرت فورا في طلقات المسدس. لم أخطئ ما دام أنها أخبرتني:

"أنت على حق... طلقات طائشة..."

انفجرت ضحكا. ألقت علي بنظرة عتاب. ثم ضغطت على ذراعي.

"لنتوقف عن هذا الحديث الكئيب... راودني حلم سيء البارحة... حلمت بأنني كنت في شقة وأنني كنت أطلق الرصاص على شخص للدفاع عن نفسي... شخص مرعب له أجفان ثقيلة..."

"أجفان ثقيلة؟"

"نعم..."

دون شك كانت لا تزال غارقة في حلمها. غير أن ذلك لم يزعجني. كنت غالبا أحيا التجربة ذاتها: بعض الأحلام -أو بالأحرى بعض الكوابيس- التي تنتابك خلال الليلة السابقة، تبقى ملازمة لك اليوم بكامله. تتداخل مع حركاتك الأكثر اعتيادية، وتحدُّ عنتا في التواجد مع

أصدقائك، تحت أشعة الشمس، على سطح مقهى، تتعقبك على شكل مزق وتلتصق بحياتك الفعلية، كنوع من الصدى أو الضباب الذي لا يمكنك الفكاك من إساره. أحيانا يعود سر هذا الاضطراب إلى قلة النوم. كنت أرغب أن أخبرها بذلك لزرع الطمأنينة في صدرها. كنا قد وصلنا بالقرب من سانت جوليان لو بوفر. أمام المكتبة الأمريكية، كانت المقاعد والكراسي قد رصت كما لو على سطح، وكان العشرات من الأشخاص يجلسون هناك، وهم يصغون إلى موسيقى الجاز التي تنبعث من المكتبة.

أخبرتها: "علينا أن نجلس إلى جوارهم. سيجعلك ذلك تنسين حلمك المزعج..."

"أتظن ذلك؟"

لكننا واصلنا السير، لا أدري في أي طريق. أذكر الشوارع الساكنة حيث تشكل أوراق الأشجار قبة، والنوافذ القليلة المضاءة على واجهات المباني، وأسد بيلفور الذي يحرس المكان بنظرته المجمدة نحو الجنوب. كانت قد خرجت من حلمها المزعج. جلسنا على أدراج السلالم العمودية التي تفضي إلى زقاق لود. كنت أسمع أصوات المياه وهي تنساب في مكان ما. مالت بوجهها نحوي.

"لا يجب أن تعير بالا لما أخبرتك به منذ قليل... لا شيء تغير... الأمر تماما كما كان من قبل..."

ذلك المساء الصيفي، ذلك الانسياب لشلال أو لنافورة، هذه السلالم المحفورة عموديا في الجدار الكبير وحيث تطغى أوراق الأشجار بعتوها... كان كل شيء هادئا، وكان لدي اليقين بأن ممرات الهروب نحو المستقبل كانت تتفتح أمامنا.

***

لا نعود غالبا إلى أحياء الجنوب. إنها منطقة غدت في الأخير منظرا داخليا، متخيلا، إلى درجة أننا نندهش لأن أسماء من قبيل تومب- إيسوار، غلاسيير، مونتسوري، بلاط الملكة بلونش، تظهر في الواقع، بحروف كاملة، في مخططات لباريس. لم أعد أبدا إلى زقاق لود. باستثناء في أحلامي. هكذا، يتراءى لي في مواسم مختلفة. من خلال نوافذ غرفتي القديمة يبدو الزقاق مغطى بالثلج، لكن إذا ما بلغناه من الشارع عن طريق السلالم العمودية، فهناك دوما الصيف.

لكنني كنت غالبا ما أمر هنا وأنا أسير مشيا عبر رصيف هنري التاسع للذهاب إلى محطة ليون. وكل مرة، كنت أشعر بانقباض في صدري وبنوع من القلق. ذات مساء حينما استقللت سيارة أجرة عند مخرج المحطة، طلبت من السائق أن يتوقف أمام المبنى رقم 46 وأنا أتظاهر بأنني أنتظر شخصا ما. كنت أحدق في البوابة. كنت قد دفعتها تقريبا في نفس الساعة، ذلك المساء، في شهر تموز. حاولت أن أعد عدد السنوات. بعد قليل، أخبرني السائق:

"هل تعتقد فعلا بأن الشخص سيأتي؟"

طلبت منه أن ينتظر قليلا، وهكذا غادرت سيارة الأجرة. حينما وصلت أمام البوابة، لاحظت على يميني رمزا رقميا لم يكن موجودا في السابق. ضغطت بالسبابة، دونما اتفاق، على أربعة أرقام وعلى حرف دال. بقي الباب مغلقا. صعدت إلى سيارة الأجرة مرة أخرى.

سألني السائق: "لقد نسيت رقم الرمز، أليس كذلك؟ هل ننتظر دائما؟"

"لا."

أحيانـا، في أحلامـي، أعـرف رقـم الرمـز ولا أكـون بحاجـة لـدفع البوابـة. بالكـاد أضـع سبابتي على الحـرف دال حـتى ينفـتح البـاب مـن تلقاء ذاته وينغلق ورائي. يضـيء الممر الكبير للمدخل ضوء النهار الـذي ينبعث من كوة، هناك بالداخل. أجدني أمام الباب الآخر، باب الشقة في الطـابق الأرضـي، هـذا البـاب مـن الخشـب السـميك والشـفاف الـذي على سيدة تدعى السيدة دورم أن تفتحه لي، هـذا المساء من شهر تموز رفقة داني. انتظرت قليلا قبل أن أقرع الجرس. على البـاب، توجـد بقـع الشـمس. أشـعر بالخفـة، نعـم، التخلص مـن حسـرة، مـن لا أدري أي ذنب. سيكون الأمر كما في السابق، أو بالأحرى لـن يكـون هنـاك أبـدا لا قبل ولا بعد في حيواتنا، هـذا "الشـيء الخطير"، هـذا الانكسـار، هـذا العائق، هذه الخطيئة الأولى -أحـاول عبثـا أن أجـد الكلمات المناسبة - هذا العبء الذي نحمله بالرغم من شبابنا ولا مبالاتنـا. سأقرع الجرس، وسيكون الصوت حـادا كمـا في المسـاء السـابق. سـتنفتح ضـلفتا البـاب بـنفس الحركـة البطيئـة كمـا البوابـة وسـتخبرني امـرأة شـقراء في عقـدها الخامس، ملامحها منتظمة وترتدي ثيابها أنيقة:

"تنتظـرك داني في الصـالة." هـذه المـرأة هـل هـي السـيدة دورم؟ أستيقظ كل مرة على هذا السؤال، لكن لا يوجد أبدا أي جواب. في ملـف لانغلـي، يـرد اسمهـا وهنـاك بعـض المعلومـات التافهـة بشـأنها. لا توجد صورة لها...: "المدعوة السيدة دورم، كانت في بداية الأمر مرتبطة ببول ميلاني في "4" من زقاق دواي... مديرة بوفي 48.. ونجمة إيبنـا... ربمـا اشـترت العديـد مـن أحصـنة السـباق منـذ خمسـة عشـر... لعلهـا غـادرت إلى سويسـرا في تـاريخ غـير محـدد..." امـرأة دون وجـه، كـذلك الميت الذي اقتادوه في سيارة مركونة أمام المبنى. كانـت السـاعة تشير إلى

حوالي الواحدة صباحا، حسب إفادة حارس البناية 46. لقد كان هو الذي فتح البوابة ليسمح لهم بالمرور. كانوا أربعة. كان الحارس يجهل أن الرجل ميت؛ أحد الذين يمسكون به أخبره ببساطة بأن هذا الشخص شعر بتوعك وبأنهم يحملونه إلى مستشفى لاريبوازيير. لماذا لاريبوازيير؟ كان المستشفى بعيدا، في الجهة الأخرى من باريس. في الحقيقة، حسب المعلومات التي جمعها لانغلي، فقد تم اقتياد الميت "إلى منزله" حتى يموت هناك بشكل رسمي موتا جميلا، دون أن يعلم أي أحد أبدا أن الحادث وقع في شقة في الطابق الأرضي من البناية رقم 46 برصيف هنري الرابع. لاحظ الحارس منذ بضعة شهور حركة دائبة، بدءا من التاسعة مساء وخلال الليل. غالبا ما يتناهى صوت الموسيقى، لكن ذلك المساء، عم الهدوء الشقة. لابد أنك كنتِ هناك رفقة ذلك الشخص الذي يدعى "الميت"، دون أن تأتي على ذكر اسمه أبدا. ومع ذلك، أسفل صفحة من صفحات التقرير، يمكننا التخمين بأن هذا الاسم كان قد رُقن بالآلة الكاتبة ثم شُطب بعد ذلك. بالكاد يمكن ملاحظة حرفان: حرفي السين والفاء. لقد كنتِ إذن، ذلك المساء، في الشقة رفقة شخص غريب، ورفقة أشخاص آخرين - مجموعة "محدودة جدا"، كما يشير التقرير- وهذه المرأة المدعوة السيدة دورم. سمع الحارس طلقتان، تحديدا قبل منتصف الليل. حوالي دقيقتان بعد ذلك، شاهد رجلان وامرأتان يغادرون الشقة، وبعد ذلك "فتاة شابة" قدم بشأنها علامة واضحة إلى حد ما، ذلك أنها كانت تتردد غالبا على الشقة منذ شهور كثيرة، وأنه تحدث إليها كما أنها كانت تستلم بريدها الذي كان يوجه لها تحت اسم "ميراي سامبييري بشكل منتظم." إنها أنتِ. حل الأربعة الآخرون بعد مرور حوالي ساعة لاقتياد هذا الشخص دون اسم

ودون وجه في السيارة المركونة أمام البناية. إحدى الشخصيات المقدمة خلال هذه الأمسية- شخص ما يدعى جون تيراي- اعترف بأنك أنت التي أطلقت النار، لكن المسدس كان للشخص المجهول وأنه هددك على نحو "وحشي ووقح." لا شك أنه كان ثملا. لم يعد موجودا ليقول ذلك كما لو أنه لم يوجد قط. يبدو أنك تمكنت من انتزاع المسدس من بين يديه، وأطلقت النار، أو أن الطلقات "انطلقت من تلقاء ذاتها" بسبب حركة سريعة جدا من جانبك. طلقتان طائشتان؟ لقد عثروا على العبوات الفارغة في غرفة من غرف الشقة خلال التحقيق. لكن من فتح لهم الباب؟ هل هي السيدة دورم؟ فيما يتعلق بك، لا يوجد الكثير في هذا الملف. لم تكوني من مواليد الدار البيضاء، كما أخبرتني ذات مساء ونحن نتحدث بشأن أغاموري وبعض رواد فندق أونيك الذين تربطهم "علاقة وثيقة" بالمغرب. لقد ولدت ببساطة في باريس خلال الحرب، سنتان قبل تاريخ مولدي. ولدت من أب مجهول الهوية ومن أندري ليديا روجي، برقم 7، زقاق نارسيس دياز، المقاطعة السابعة. مصحة ميرابو. لكن بعد نهاية الحرب بفترة، يتم اكتشاف بأن أمك أندري ليديا روجي تقطن في المنزل 16، زقاق فيتروف، في المقاطعة العشرين. لكن لماذا هذا التدقيق ولماذا هذا الانتقال المباغت من المقاطعة السادسة عشر إلى حي شارون؟ أنتِ وحدك، ربما، من يمكنه أن يخبرني بذلك. لا توجد إشارة إلى أخيك بيير الذي كنت تتحدثين إلي بشأنه غالبا. يعلمون بأنك كنت تقطنين زقاق بلونش تحت اسم ميراي سامبييري، دون أن يفصحوا عن سر استعمالك لهذا الاسم. لا إشارة إلى غرفتك في الحي الجامعي ولا إلى جناح الولايات المتحدة. ولا إلى شارع فيكتور هيغو. ومع ذلك، فقد

كنت أرافقك إلى هناك وكنت أنتظرك خلف المبنى ذي المخارج المزدوجة. وكنت تعودين دائما محملة بحزمة من الأوراق النقدية، وقد كنت أتساءل عن مصدرها، لكنهم لم ينتبهوا إلى ذلك. لا شيء أيضا بخصوص الشقة الصغيرة الواقعة في شارع فليكس فور ولا باربوري، أو المنزل الريفي بفويوز. يعلمون بأنك استأجرت غرفة بفندق أونيك، حسب معلومة استخباراتية مصدرها "دافان"، لكن يبدو أنهم لم يكونوا في عجلة من أمرهم لاستجوابك، وإلا كان يكفي انتظارك في البهو، أو مجرد اتصال هاتفي بسيط من "دافان" ليعلمهم بأنك هناك. كان عليهم أن يتخلوا بسرعة كبيرة عن التحقيق، وعلى أي حال، حينما تم استدعائي من طرف لانغلي، فقد كنتِ قد "اختفيت." "كان ذلك مدونا في الملف. اختفت شأنها شأن السيدة دورم، التي لم يعثروا لها على أي أثر في سويسرا، على افتراض أنهم قاموا فعلا بالبحث عنها هناك.

أجهل إذا ما أنهوا تحقيقهم على وجه السرعة وبشكل سيئ أو أن المعلومات التي يحفظونها في أرشيفاتهم حول الملايين والملايين من الأشخاص هي أيضا ناقصة، لكنني أعترف لكِ بأنني أصبت بالخذلان. كنت أظن، حتى الآن، بأنهم كانوا يجسون الكِلي والقلوب، وبأن ملفاتهم تضم التفاصيل الأكثر دقة حول حيواتنا، كل أسرارنا التافهة، وبأننا تحت رحمة صمتهم. لكن ماذا يعرفون فعلا عنا نحن الاثنين، وعنك، بغض النظر عن الطلقات الطائشة وذلك الميت الشبح؟ في الاستجواب الذين جعلوني أوقعه أسفل عبارة "اطلع ووقع،" لم أخبرهم تقريبا بأي شيء عنك. ولا عني. أخبرتهم فقط بأننا تعرفنا على بعضنا بعض منذ مدة قليلة بفضل طالب مغربي من الحي الجامعي وبأنك

أيضا كنت ترغبين في التسجيل في كلية سونسيي. وبأننا كنا نلتقي تقريبا خلال ثلاثة أشهر في الحي اللاتيني وفي حي مونبارناس وسط الطلبة الجادين والرسامين كبار السن ذوي الشعور المجعدة وصدريات القطيفة والذين كانوا يترددون على هذه الأماكن. كنا أيضا نتردد على دور السينما والمكتبات. ولم أكتفِ بذلك بل أضفت بأننا كنا نقوم بنزهات مطولة في باريس وفي غابة بولون. وبينما كنت أجيب على هذه الأسئلة في مكتبه بمركز جيسفر، كنت أسمع طقطقة آلة الكتابة. كان لانغلي هو الذي يرقن، بأصبعين. نعم، كنا نتردد أيضا على مقاهي بولميش ونظرا لأننا لم نكن نملك الكثير من المال، فقد يحدث أن نتناول وجباتنا في مطعم الحي الجامعي. ومادام قد طرح علي السؤال التالي: "ماذا كانت هواياتكم؟"، آملا، كما أخبرني، "أن يتعرف أكثر إلى شخصياتنا،" فقد انتهيت إلى تزويده بتفاصيل إضافية: أننا نتردد على الخزانة السينمائية لزقاق أولم وبأننا كنا على وشك الانخراط في جمعيات شبابية تعنى بالموسيقية الفرنسية. حينما طرح علي أسئلة بشأن أغاموري وفندق أونيك، شعرت بأنني في ورطة. كنا قد التقينا بأغاموري في مقهى الحي الجامعي. فعلا، كنت أظن أنه مجرد طالب جامعي. على أي، فقد ذهبت خلال مناسبات عديدة للقائه بسونسيي بعد انتهاء محاضراته. لا، لم يكن بوسعي أبدا تصور أنه ينتمي إلى "المصالح الخاصة المغربية." ولكن، هذا لا يعنينا في آخر المطاف. وماذا عن فندق أونيك؟ لا، لا، ليس أغاموري من قادنا إلى هناك. علمت بأنهم لا يمتنعون عن تأجير الغرف في فندق أونيك، حتى إذا لم يكن الشخص راشدا، وكان علي انتظار سنة أخرى لبلوغ سن الرشد. لهذا السبب كنا نستأجر غرفة هناك، بين الحين والحين، أنا وصديقتي.

لاحظت أن لانغلي لم يرقن هذه الإجابة على الآلة الكاتبة وبأن كل كذبي، على ما يبدو، لم يكن مهما بالنسبة له.

"حسنا، إذا لم أسئ الفهم، فالغالي أغاموري لم يقدمك أبدا، أنت وصديقتك، إلى المدعوين دوفيلتز ومارسيانو وشاستانيي وجورج ب. الملقب بروشار؟"

"لا..."

وهو يضغط على الحروف بسبابتيه، راح يتلو العبارة نيابة عني: " لم يقدمني المدعو الغالي أغاموري أبدا إلى المدعوين دوفيلتز، أو مارسيانو، أو شاستانيي أو روشار. كنا أنا وصديقتي فقط نصادفهم في بهو الفندق." بعد ذلك ابتسم لي وهز منكبيه. ربما كان يفكر مثلي: كل هذه التفاصيل البئيسة لا تعنينا أساسا. لن تشكل عما قريب أي فرق في حيواتنا. بقي مطرقا لمدة طويلة وهو يفكر، الذراعان متشابكتان وراء آلته الكاتبة، الوجه يميل إلى الأمام، وقد ظننت أنه نسي وجودي. وبصوت هادئ، دون أن ينظر إلي، أخبرني: "هل تعلم بأن صديقتك كانت منذ سنتين بسجن لا بوتيت روكيت؟" وبعد ذلك ابتسم لي من جديد. شعرت بانقباض في صدري. " لم يكن الأمر خطيرا جدا... بقيت في السجن لثمانية أشهر..." ثم سلم لي ملفا اضطررت لقراءته بسرعة كبيرة، لأنه كان يمسكه ما بين الإبهام والسبابة وكنت أخشى أن ينزعه على حين غرة. كانت السطور والكلمات تتراقص تحت ناظري: "سرقة الأشياء المعروضة في محلات مختلفة للبضائع الراقية... تم اعتقالها بشارع فيكتور هيغو وهي تحمل حقيبة يدوية من جلد التمساح... "دخلت إلى محل دون حقيبة يدوية. في الداخل، اخترت واحدة وحملتها معي... نفس الشيء بالنسبة للمعاطف..."

لم يمهلني لكي أقرأ كل شيء ووضع الملف على مكتبه. بدا منزعجا لأنه أطلعني على ملف كهذا... كرر مرة أخرى: "لم يكن الأمر خطيرا جدا، أعمال صبيانية... دغر... هل تعلم ما يقال عن الدغر؟"- اندهشت لأن هذا الاستجواب اتخذ فجأة منحى عاديا، منحى يكاد يكون وديا بيننا - "نقصان العاطفة... يسرق المرء الأشياء التي لم يمنحها له الآخرون... هل كانت تشكو من نقصان العاطفة؟" تطلع إلي بعينيه الزرقاوين الكبيرتين، وكان ينتابني الإحساس بأنه يحاول قراءة أفكاري وبأنه تمكن فعلا من ذلك.

"على ما يبدو، فإنها تورطت الآن في عمل في غاية الخطورة... حدث ذلك منذ ثلاثة أشهر... تحديدا قبل أن تتعرف عليها... يتعلق الأمر بوفاة شخص."

أظن بأنني صرت شاحبا جدا ذلك أن نظره الأزرق المركز علي كان ينضح بقلق ما. بدا لي أنه كان يراقبني.

"بطبيعة الحال، يمكن اعتبار ذلك حادثا... طلقتان طائشتان..."

وبحركة متراخية، مرر ورقة بيضاء في آلة الكتابة وسألني: "ألم تعترف لك صديقتك أبدا بشأن أمسية جرت في شهر أيلول الأخير في شقة، رقم 46، رصيف هنري الرابع، في باريس؟"

أجبت سلبا ومن جديد طرقت سمعي طقطقة الآلة. سؤال آخر: "هل أوضحت لك صديقتك لماذا كانت تغير اسمها على الدوام؟" كنت أجهل ذلك، لكن لو حدث العكس لما اندهشت. فقد سبق لي أنا الآخر أن غيرت اسمي الشخصي وتاريخ ميلادي حتى أبدو أكبر سنا وحتى أبدو راشدا. على أي، لم أكن أعرفها سوى تحت اسمها الشخصي "داني." بينما كان يرقن إجابتي، أمليت عليه هذا الاسم

الشخصي، وأنا أستعيد خطأ الإملاء الذي كنت قد ارتكبته خلال لقائنا الأول.

"هل اتصلت بك منذ اختفائها وهل تعلم أين يمكن أن تتواجد."

سبب لي هذا السؤال حزنا كبيرا بحيث أنني بقيت صامتا. أجاب بالنيابة عني، وهو يضغط في الآن ذاته على حروف الآلة بسبابتيه: "لم تتصل بي صديقتي منذ اختفائها، وأفترض أنها ذهبت إلى الخارج."

ثم استدرك:

"ألم يسبق لها أبدا أن حدثتك عن سيدة تدعى السيدة دورم؟"

"لا."

فكر قليلا ثم واصل بصوت عال الضغط على الحروف بسبابتيه:

"... أنها ذهبت إلى الخارج، لا شك برفقة المدعوة ميرو هيلين المسماة السيدة دورم."

تنفس الصعداء، كما لو أنه انتهى للتو من عمل شاق. مد لي الورقة.

"وَقع هناك."

أنا الآخر، شعرت بالراحة فور الانتهاء من ذلك.

أخبرني، كما لو يريد طمأنتي: "إنه تحقيق عادي استمر منذ شهور. سنغلق القضية نهائيا... سيتم الادعاء بأن الشخص المتوفى قضى نحبه بشكل طبيعي في منزله. آمل ألا تكون هناك متابعات بالنسبة لك. لكننا لا ندري أبدا..."

كنت أبحث عن كلمات ودية قبل أن أستأذن.

سألت: "هل تستعمل الآلة الكاتبة لكتابة الإفادات؟ يبدو لي، أنه في الماضي، كان كل شيء يُكتب باليد."

"أنت على حق. ومعظم رجال المباحث في الماضي كان لديهم خط في غاية الجمال. وكانوا يصوغون تقاريرهم بأسلوب فرنسي راق."

قادني على طول الممر، ونزلنا السلالم معاً. قبل أن نفترق، في فُرجة الباب الذي يفضي إلى الرصيف، أخبرني:

"أنت الآخر، حسب ما ظننت أنني فهمته، بدأت الكتابة باليد، أليس كذلك؟"

"نعم. باليد."

* * *

تم تدمير سجن لا بوتيت روكيت وفي مكانه امتدت ساحة. حوالي عشرين سنة، كنت غالباً أقوم بزيارة شخص يدعى أدولفو كامينسكي، مصور يقطن في إحدى البنايات الكبيرة، على طول الزقاق المقابل للسجن. كانت نوافذ منزله تطل على البناية السداسية الأضلع بأسوارها الستة. خلال هذه الأثناء كُنتِ نزيلة هذا المكان، لكنني كنت أجهل ذلك. في مساء آخر، كنت أنتظر أمام بوابة السجن، قبالة مكان إقامة كامينسكي، وأذنوا لي بالدخول. قادوني إلى غرفة الاستقبال. جلست وراء شاشة زجاجية، وكنتِ جالسة في الجهة المقابلة. كنت أحدثك وكان يبدو لي أنك كنت تفهمين كلامي، لكن عبثا كنت تحركين شفتيك، تلصقين جبينك بالشاشة الزجاجية. فأنا لم أكن أسمع صوتك. طرحت عليك بعض الأسئلة: "من كانت السيدة دورم؟ والميت الشبح برصيف هنري الرابع؟ والشخص الذي كنتِ غالبا تقومين بزيارته في المبنى ذي الأبواب المزدوجة بينما كنت أنتظرك؟" بواسطة حركات شفتيك، كنت أرى بأنكِ كنت تحاولين الإجابة على

أسئلتي، غير أن الشاشة الزجاجية بيننا كانت تحول دون ذلك. ران الصمت كأنه صمت حوض للأسماك.

أذكر أننا كنا نتنزه غالبا في غابة بولون. كان ذلك عند نهاية الزوال خلال الأيام التي كان علي خلالها أن أنتظرك وراء مبنى شارع فيكتور هيغو. لن أعلم أبدا لماذا كانتْ تغادر من هذا الطريق وليس عن طريق المدخل الرئيسي، كما لو كانت تخشى أن تصادف شخصا ما في هذه الساعة. كنا نسير على طول الطريق حتى لا ميت. ونحن نسير على طول طريق البحيرات، كنت أشعر بأنني أتخفف من عبء ما. هي الأخرى، كانت تشعر بالخفة ذلك أنها كانت تخبرني بأنه سيكون من الأفضل لو أقمنا في غرفة في هذه الكتل من البنايات على طرف الغابة. منطقة محايدة، معزولة عن كل شيء، ضمن جيران قليلين جدا لن نفهم حتى لغتهم، بحيث أننا لن نكون بحاجة للحديث إليهم أو الإجابة على أسئلتهم. لن نكون مضطرين لتبرير سلوكنا لأي كان. سينتهي بنا المطاف إلى نسيان الثقوب السوداء في باريس: فندق أونيك، سجن لا بوتيت روكيت، الطابق الأرضي في الرصيف والشخص الميت، كل هذه الأماكن السيئة التي كانت تمنح لكل واحد منا مسارا مضطربا.

ذات نهاية زوال في شهر تشرين الثاني، كان الظلام قد حل وكانت تطفو في الجو رائحة النباتات الميتة، رائحة أرض مبللة، واصطبل؛ كنا نسير على طول حديقة التكييف ووصلنا إلى طرف سانت جيمس. جلسنا على مقعد. كنت قلقا بسبب مخطوطي الذي أضعته بالمنزل الريفي. كانت قد أخبرتني بأننا لن نتمكن أبدا من العودة إلى المنزل. سيكون ذلك محفوفا بالمخاطر. لم تحدد طبيعة الخطر. كانت

قد احتفظت بمفاتيح المنزل الريفي، كما احتفظت أيضا بمفتاح الشقة الموجودة بشارع فيليكس فور، مع أنه كان عليها أن تعيدها لأصحابها منذ مدة. كنت أشك بأنها قامت بنسخها دون علم أصحابها. كانت تخشى أن تتم مباغتتنا في المكان، كما لو كنا لصوصا.

"لا داعي للقلق، جون. سنعثر في نهاية المطاف على مخطوطك." كما أنها أضافت بأنني أقلق دون داع لذلك. يكفي البحث في أكشاك بائعي الكتب واختيار إحدى هذه الروايات القديمة التي توفي قراؤها القليلون منذ زمان والتي لن يرتاب الأحياء في وجودها. وأن أعيد نقلها. باليد. ثم أدعي بأنني مؤلفها.

"ما رأيك في هذه الفكرة، جون؟"

احترت في الرد عليها. أذكر العبارة الأولى لمخططي: "علي العودة إلى فترة من فترات شبابي حيث كنت ألقب بفارس وارويك المزيف..." خطر لي أنه بواسطة مذكرتي السوداء يمكنني إعادة كتابة الصفحات المفقودة وتصحيحها. في الأساس، كانت على حق. سأشعر كما لو كنت أعيد نقلها: باليد. هذا ما أقوم به اليوم.

اندست إلى جانبي وكررت بصوت خفيض: "لا داعي للقلق، جون..."

بعد مرور بعض الوقت، ذات صباح، وجدت مظروفا دفع به شخص ما من تحت باب غرفتي:

"جون

أغادر وأنا أدرك هذه المرة أنه من الممكن ألا نلتقي إلا بعد مرور مدة طويلة. لن أخبرك بالمكان الذي سأذهب إليه، لأنني أنا الأخرى أجهل ذلك. لن تجدني هناك حيث سأذهب. سأكون بعيدة جدا –

وعلى أي حال، ليس في باريس. إذا ذهبتُ، فلأنني لا أريد أن أسبب لك المشاكل...

ملحوظة: ثمة أمر لم أخبرك الحقيقة بشأنه وهذا يؤرقني. ليس عمري 21 سنة كما أخبرتك بذلك سابقا. عمري في الحقيقة هو 24 سنة. كما ترى، سأصبح عجوزا عما قريب."

كانت قد نقلت هذه الرسالة من رواية قديمة كنا قد اشتريناها معا ذات زوال من الأرصفة. لا زال صوتها يطرق سمعي وهي تقول:

"... لا داعي للقلق، جون..." الغابة، الشوارع المقفرة، كتلة البنايات المعتمة، نافذة مضاءة تمنحك الإحساس بأنك نسيت نورا مضاء في حياة أخرى، أو أن شخصا لا يزال في انتظارك... عليك أن تختبئ في هذه الأحياء. تحت أي اسم؟ سأتمكن في الأخير من إيجاد الزقاق. ولكن كل يوم، يضغط الوقت أكثر فأكثر وكل يوم، أخبر نفسي بأن ذلك سيكون في المرة القادمة.



مع ذلك فما كان يراودني لم يكن حلما. أحيانا وأنا أذرع الشارع تباغتني هذه الكلمات كما لو أنها كلمات شخص آخر، كلمات جوفاء باردة. على مسرح الذاكرة تطفو وجوه وتفاصيل. طوى الزمن كل من أعرفهم وما عاد هناك من أبادله أطراف الحديث. لا بد أن يكون هناك شاهدان أو ثلاثة على قيد الحياة. لكن يقينا لا أظن أنهم سيذكرون أي شيء. وبالتالي ينتهي بنا المطاف للتساؤل إذا ما كان هنالك حقا أي شهود.

كلا، ما كان يراودني لم يكن حلما. والدليل على ذلك أنني لا زلت أحتفظ بمذكرة سوداء تمتلئ صفحاتها بالملاحظات. لتبديد هذا الغموض، أحتاج إلى كلمات محددة وهكذا أستعين بالقاموس. ملاحظة: إشارة مقتضبة يدونها المرء لتذكر شيء ما. على صفحات الدفتر تتوالى الأسماء، وأرقام الهواتف، وتواريخ المواعيد، وكذلك بعض النصوص القصيرة التي قد تكون لها علاقة ما بالأدب. لكن في أي لون يمكن تصنيفها؟ مذكرات شخصية؟ شذرات من الذاكرة؟ ناهيك عن المئات من الإعلانات الصغيرة التي كنت قد نقلتها إلى صفحات المذكرة والتي كانت قد صدرت في صحف. كلاب ضالة. شقق مؤثثة. طلبات وعروض عمل. عَرافات.

ضمن هذه الأكداس من الخواطر، ثمة ملاحظات تتميز بنبرة أكثر قوة من الأخريات. خصوصا إذا لم يكن هناك ما يخدش جدار الصمت. ما عاد الهاتف يرن منذ مدة. كما أن لا أحد سيطرق الباب. لا بد أنهم ظنوا أنني قضيت. أنتَ وحيد، تتوخى الحذر، كما لو أنك تريد التقاط رموز جهاز مورس يبعث لك بها مراسل مجهول من مكان قصي. بطبيعة الحال، العديد من هذه الرموز مشوشة، ويجدر بك أن ترهف السمع حتى لا تفقدها إلى الأبد. لكن بعض الأسماء تنفصل بوضوح في الصمت وعلى الصفحة البيضاء...

باتريك موديانو

صدر أيضاً للمؤلف:







